www.liilas.com
florist

نماذج من النّاس

www.liilas.com
منتديات ليلاس

نماذج من الناس

تأليف

محمد عبد الشافى اللبان

الطبعة الأولى

دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م

- نقطة تحوّل
- وجهات نظر
- داعية الادخار
- صاحبة العصمة
- إنسانٌ وجد نفسه
- فاطرة العجزة
- الثوب الممزق
- تحريات تنقصها الدقة
- الحلم والحقيقة
- قلب وبنك

نقطة تحول

نقطة تحول

كان جدى رجلا يعشق الحياة . . .

وذلك على الرغم من المصائب التى صادفته فى صدر شبابه ، أو ربما بسبب هذه المصائب نفسها .

قضى الموت على جميع أفراد عائلته . رآه يغتالهم واحداً بعد واحد . . حتى لم يبق له منهم إلا حفيد واحد . . هو أنا . . قريبه الوحيد فى هذه الدنيا .

ومع ذلك فقد استقبل الرجل ما نزل به من كوارث بثبات المؤمن ، وصبره ، ورجائه فى لطف الله ورحمته . وكأنما انتابه شعور بأن بقية الحياة ، التى حرم أهله منها ، قد آلت إليه بالميراث . . وأن عليه ، عزاءً لأصحابها ، وعزاءً لنفسه ، أن يعلموا أن هذه الأعوام قد أصبحت من حقه ، وأنه سوف يعيشها نيابة عنهم . . ويجعل أيامها سعيدة هنية ، مرضاة لهم ، وقياماً ببعض حقهم فى التعويض عن خسارتهم . . ! وركن إلى هذه الفلسفة . ووجد فيها عزاءه . فأقبل على الحياة يعبها عبًّا دون أن يستسلم لليأس ، أو يدع إلى الحزن طريقاً للقضاء عليه ، كما قضى السابقون من أفراد عائلته .

وهكذا أقبل على الدنيا بعزم جاد على الاستمتاع بخير ما فيها ، وبقلب نابض بالأمل ، والقوة ، والنشاط ، حتى امتدّت به الحياة رخيّة ، مطمئنة ، راضية ، ما ينيف على الثمانين عاماً ، يستمتع فيها بما تعرض الأيام من مباهجها ، وتعطى الطبيعة من خيراتها ولذاتها ، على قدر ما يستسيغه ذوقه ومزاجه ، فى وفرة من السعادة ، وصحة من العقل والبدن .. حتى لقد أخذه العجب يوماً من شبابه وفتوته .. فقرّر أن يستشير الطبيب فيهما . . . وليته ما فعل ! ! فقد كانت هذه الزيارة لا عن تعبٍ ولا عن مرض . وإنما بداعى الفضول وحب الاستطلاع ، والرغبة فى الوقوف على هذا السر العجيب ، سر شبابه ، الذى يملؤه بالزهو ، ويبعث فى نفسه الراحة والسرور ! !

ولقد كان الأحرى به ، أن يكتفى بحمد الله على ما هو فيه ، وأن يحرص على الاحتفاظ بسره ، كما يحتفظ صاحب المال بماله ، وألا يدفعه الغرور ليكون هو أول حاسديه . . ! وقد يبدو غريباً أن يذهب الإنسان إلى الطبيب ، لا ليستشيره فى أسباب علته ، وإنما ليستوضحه سر احتفاظه بعافيته . ولكن هكذا كان جدى فى مفارقاته ، وعبثه ، وفلسفته !

ولما كنا ، هو وأنا ، من الأصدقاء الذين لا يفترقون ، على الرغم مما بيننا من فارق السن ، وتلك ميزة من مزايا احتفاظ جدى بشبابه ومرحه ، فقد اصطحبنى معه إلى الطبيب فى هذه الاستشارة ، التى كانت

تبدو لنا فى أول الأمر ساخرة . وكان الطبيب من كبار أساتذة الأمراض الباطنية ، ولعله كان أشهرهم فى ذلك الحين .

وبعد الكشف الدقيق الطويل ، والأسئلة المحرجة أحياناً ، عن السن ، وأحيانا عن أسلوب المعيشة ، والزواج ، وتاريخ الأمراض فى العائلة ، وعند المريض بالذات التفت الدكتور إلى جدى باسماً :

— إنك يا عمى فى أحسن حال ، والحمد لله . . ليس هناك ما يدعو إلى القلق خصوصاً لمثل من فى سنك !

ولعل هذه الإجابة هى التى كان جدى ، فى رضائه عن حاله ، يتوقع صدورها من الطبيب . . . أو هكذا ظننت ، ولكنه عاد يستفهم :

— لا شىء ؟ ! . . لمثل من فى سنى ؟ !

وكان يبدو فى لهجته عدم الرضا عما ورد فى إجابة الطبيب من إشارة إلى سنه . ولكن الطبيب ، فى جهله بطباع جدى ، لم يلحظ شيئاً من ذلك وأجاب مؤكداً :

— لا شىء مطلقاً ، والحمد لله . . .

فابتسم جدى فى خبث برىء ، كأنما يريد أن يعبث بالطبيب . . . وسأله :

— وما رأيك إذن فيما قلت لك إنى أشعر به أحياناً .

فأجاب الآخر ، وهو لا يزال على ابتسامته :

— كلها مسائل بسيطة . . . بعض أعراض الشيخوخة !

وهنا انطفأت الابتسامة العريضة التى كانت تنير وجه جدى ، وظهر عليه الامتعاض بصورة واضحة !

وظل بعد انصرافنا من عيادة الطبيب صامتاً لا يتكلم . . . وأخيراً سمعته يقول :

— حكيم جاهل ! . . إنه لا يفهم شيئاً ! !

فاندهشت وقلت له :

— إنه حكيم ذائع الصيت ، يعرف ما يقول . وأنت ولله الحمد سليم معافى . . ومن حقك الآن أن تطمئن . . .

وازدادت دهشتى عندما قاطعنى قائلا :

— أطمئن على ماذا ؟

— على صحتك .

— لقد كنت أفضل أن يجد بى مرضاً . . على أن يقول هذا القول!

— أىّ قول ؟ !

— ألم تسمعه يقول . . أعراض الشيخوخة ؟ !

— وهل كنت تفضل المرض على أعراض الشيخوخة ؟

— وهل فى هـذا شك ؟ المرض أيًّا ما كان تتوفر الفرصة لعلاجه . . . أمّا أعراض الشيخوخة . .

— ألا تراها طبيعية ؟ !

صمت لحظة ، وأشار بذراعيه إشارة الحائر الذى لا حيلة له ، ثم قال :

— وهل بلغت من العمر أرذله ، حتى يذكرنى بتلك الذكرى . . ذكرى الشيخوخة التى بذلت عمرى غافلاً عنها . . الله يسامحه . .

فقلت له ، محاولاً التخفيف عنه : وأنا أكاد لا أخفى عجبى من إصراره على نكران حقيقة لا يمكن ، بعد هذه السّن ، أن يتجاهلها !

— لقد نسى الدكتور أن الأمر ليس بالسّن . وأن المرء بأصغر به : قلبه ولسانه . ولقد طمأنك على قلبك الكبير الرقيق . . فاغفر له خطأه .

وأردفت ضاحكاً :

— كما أنك ما زلت تحتفظ بلسانك الحلو ، الذى لا يوافقك ، بلا شك ، على وصف الرجل بالجهل . . وقد أدّى إليك خدمة لا تستحق منك الإساءة !

فعاد إليه مرحه ، وقال :

— الواقع أن الذنب ليس ذنبى . . إنه ذنب تلك الشيخوخة اللعينة التى عشت طول عمرى كارهاً لها . . ولعلها الشىء الوحيد فى هذه الحياة الذى أنفر منه ، وأنحّيه عن خاطرى . . لقد كان الأفضل ألا أستشير الطبيب ولكنه الغرور الذى يتملك المرء أحياناً .

فقلت قاصداً تغيير مجرى الحديث :

— ألم تكره فى حياتك غير الشيخوخة ؟!

فضحك قائلا :

– فى فترة من الفترات كنت أكره نفسى !

وهنا عقبت مازحاً :

– لقد ظلمتها ! ولعلك الوحيد فى ذلك . . فأنا لا أعرف أنك أسأت إلى أحدٍ فى حياتك، حتى يوجد من يكرهك . . !

وإذا بسحابة من الحزن تعلو محياه وهو يرد قائلا :

– لقد أسأت أبلغ الإساءة . . . ، لأعزّ الناس عندى ! !

– لمن ؟

– لوالدتى

– بماذا أسأت لها ؟

وإذا به يقول فى هدوء غريب :

– قتلتهـا !!!

واستمر إزاء دهشتى يقول :

– أو على الأقل ، تسببت فى قتلها !

– أنت ؟

– نعم أنا . . . قتلتها بدون أن أعلم ولا أدرى . . ولهذا قصة تورثنى الحزن كلما تذكرتها . .

ثم انطلق يروى قصته :

– لقد قيل لى إنى ولدت بعد منتصف الليل بقليل . . وكانت ولادة متعبة . . فقد جاء المخاض والدتى وهى فى القطار ، تصوّر ! . .

فى قطار الليل ، وهى مسافرة، مع والدى ، لزيارة أهلها فى الصعيد . . لتلد الولادة الأولى عند والدتها . وكان الطبيب ، قبل السفر ، قد أكد لوالدى أن الوضع لن يتم قبل أسبوع . . ولكن الظاهر أن حركة القطار وطول المسافة ، كان لهما أثرهما فى التعجيل بالحادث ، الذى يعتبر فى العادة حادثاً سعيداً عند ما يتم فى غير هذه الظروف .

ولكنه فى هذه الحالة كان مفاجأة قاسية لوالدى ، الذى لم يكن يعرف قليلا أو كثيراً عن عملية الوضع وتفاصيلها . . ولم يكن هناك لسوء الحظ ، طبيب بين المسافرين ، فتمت العملية بطريقة اجتهادية ، عاونت فيها بعض المسافرات . . وكانت نتيجتها طامّة كبرى . . فبدلاً من أن تضعنى والدتى فى حجر أهلها وفى رعايتهم ، أخرجتنى إلى الحياة وهى فى القطار ، بعد أن لفظت آخر أنفاسها . . . وذهبت إلى والدتها جثة هامدة ، يرافقها طفل رضيع . . . !

وهزّ رأسه قائلا :

– وعليك أن تتصوّر مدى الحرارة التى استقبلنا بها عند ما وصلنا إلى دار الأسرة . . لقد كنت أنا البطل فى هذا الاستقبال . . ! كنت فيه الفارس المغوار . . برغم أنى لم أكن ممتطياً صهوة جوادى كما يفعل الفرسان . . كنت محمولاً على ذراع والدى ، ملفوفاً فى قطعة من القماش ، لعلها بعض أثواب والدتى . . ، كنت فيما يشبه الكفن ، أعيش أنا والميتة ، كلٌّ فى عالمه ، غائباً عن الجميع ، لا يدرى

شيئاً مما يدور من حوله ! !

ولم أجد ما أعلق به على تلك الصورة الحزينة التى رواها جدى عن ظروف ميلاده إلا أن أقول :

— مسكينة والدتك . . . لقد ماتت شابة صغيرة . .

وكأنما كان ينحى باللوم على نفسه عند ما أجاب :

— ومع ذلك فإنى لم أتردد فى إضافة بقية عمرها . . . أقصد البقية التى حالت جريمتى بينها وبين استمتاعها بها . . لم أتردد فى إضافتها إلى رصيدى من الأيام التى انتويت أن أعيشها . . . وهو رصيد كبير . . . وكانت والدتى فيه كما ترى ، كريمة سخيّة !

واعترضت ضاحكاً رغم كآبة الحديث :

— ولكن هذا ليس من حقك . . فالقاتل لا يرث المقتول !

وضحك معى ، وهو يقول :

— ولهذا السبب يخالجنى الشعور بأنى قد نهبتها . . . لقد ورثت الآخرين من أهلى ، وما بقى من عمرهم ، وراثة شرعية . . أما هى ، فهى الوحيدة التى أشعر أنى قتلتها . . ونهبت عمرها ! !

وعاد إلى الطبيب ، وما كان من استشارته ، وقد تملكه الغضب من جديد :

— ولذلك تسلط علىّ الاستياء والغيظ عندما أشار الطبيب إلى أعراض الشيخوخة . . لقد ذكرنى بوالدتى ، لا أدرى كيف ؟ . . ولعله

قد ذكرنى بالأيام التى سرقتها منها ، وأنها أيام عزيزة من حقها علىّ أن أحفظ لها شبابها وأقيها من عوارض الشيخوخة . . وهو ما عملت جاهداً من أجله طول عمرى . . وجاء الطبيب فى النهاية يذكرنى بأنى فشلت فيه ! !

ثم التفت إلىّ مستفهماً :

— أتدرى كيف كان موقفه منى ؟ !

واستطرد دون انتظار إجابتى :

— لقد كان مثل صراف البنك ! !

فرددت عبارته متسائلا :

— مثل صراف البنك ؟ !

— نعم ، وكان مثلى منه مثل الوارث المتلاف الذى جاء يسأله عن حسابه الجارى ، وإذا به يفاجئه بأن الرصيد لايعدو أن يكون صفراً . .

وضحك موضحاً :

— يعنى أن الحساب قد انتابته أعراض الشيخوخة !

وهكذا بدأت ألاحظ أن استشارة الطبيب ، وإن كانت فى أول أمرها مجرد دعابة عابرة ، إلا أنها قلبت حياة جدى رأساً على عقب . فقد رسخت آثارها فى نفسه ، وعمّقت فيها إحساسات لم يكن من قبل يشعر بها . . أو على الأقل كان يتحاشاها ، ويهرب من مواجهتها .

لاحظت أن الرجل بعدها نهبٌ لمعركة عنيفة بين المقاومة والاستسلام

وهى معركة ربما كانت فى الماضى كامنة فى وجدانه ، ولكنها أعلنت عن نفسها بعد استشارة الطبيب إعلانا سافراً يفضح صاحبها ويعذّبه أكثر مما يعذّبه احتدام المعركة ذاتها فيما لو بقيت مستكنّة بين جوانبه ، يستطيع أن يتجاهلها وألا يتيح الفرصة لغيره ليعرف شيئاً عنها . . .

وكانت المقاومة تتمثل فى سخريته الدائمة بالطبيب ، وبما كشف عنده من أعراض الشيخوخة . . أما الاستسلام فقد كانت شواهده تبدو فى تلك الظاهرة الجديدة ، التى لم ألاحظها فيه من قبل ، وهى المبالغة فى الحديث عن أمه ، والكلام عن حادث وفاتها ، وعن الدور الذى قدر له أن يلعبه فى هذا الحادث المشئوم !

وكانت معركة غريبة حقاً . يتحدى فيها أعراض الشيخوخة ، وفى نفس الوقت هو خائف منها . . كذلك كان فى استسلامه ينادى أمه كما لو كانت صخرة النجاة التى يرجو الاحتماء بها . . فى حين أنه كان يخشى الاقتراب منها . كانت أمنيته أن يرى أمه الحبيبة التى لم تكتب له الأقدار أن يراها ، وهو مع ذلك يرهب لقاءها . . !

ولم يكن أمامه فى تلك الحيرة ، إلاّ أعراض الشيخوخة يصبّ جام غضبه عليها ، ويهزأ منها ومن الطبيب . . وأمه التى أصبح يبالغ فى ترديد اسمها كطفل صغير وهو الشيخ الذى جاوز الثمانين . . دون أن يلقى بالاً لما فى تلك المفارقة من سخرية . . .

وأخيراً قال لى فجأة :

— لقد جاء الصيف ، وعلينا أن نسافر لقضائه بالإسكندرية .

— هل أسافر لاستئجار شقة ؟ !

— لقد توليت عنك هذا الأمر . . وحجزت بالفندق . دعنا من متاعب الشقق والانشغال بها ، ولنذهب هذا العام خفافاً أحراراً للاستمتاع بمباهج المدينة .

وقد رحبت بفكرته الصائبة ، ورجوت أن تكون سبيلاً لإنقاذه مما هو فيه من عنت فكرى . . وما كنت أعلم أنه يريد بها اختباراً جديداً لسلاحه فى المعركة التى يخوضها . فقد كان فى محاربته لأعراض الشيخوخة وشبحها الثقيل ، الذى يريد بكل الوسائل أن يبعده عن خاطره ، يكلف نفسه من الجهد والمشقة فوق ما يستطيع .

ولمّا كان ذواقة يحب الجمال فى مختلف ألوانه ، فقد اتفق معى على قضاء إحدى الأمسيات فى ملهى من ملاهى شاطئ الرمل الليلية وتناول العشاء فى مطعمه ، الذى كان يفضّله على غيره من مطاعم المدينة . ثم الاستمتاع بعد ذلك بمشاهدة العرض الجميل الذى كانت تقوم بأدائه فرقة تضمّ نخبة ممتازة من الراقصات الفاتنات .

وبينما كنت معه فى غرفته ، وقد مضى من الليل أكثره ، ونحن نتجاذب أطراف الحديث ، ونتبادل التعليقات الطريفة على العرض وما جرى فيه ، خصوصاً راقصته اليونانية التى أخذ جدى يصف جمالها ،

وفتنها ، وفنها ، بدقة العالم الخبير ، وإذا به يقول لى فجأة :

— ألا تذكرك هذه الراقصة بنعمات هانم ؟ !

فضحكت قائلا :

— أولاً ، من هى نعمات هانم هذه ؟ !

— لم أكن أظنك خبيثاً إلى هذا الحد ، هل نسيتها هكذا سريعاً ... أم أنك تتناساها . . !

— وهل أعرفها حتى أنساها . . . أو أتناساها ؟ !

— ألا تعرف جارتك ؟

— ميمى ؟ !

— نعم ميمى !

— ولكن لماذا تتكلم عنها بتلك اللهجة الرسمية . . . نعمات هانم . . !

وفى الحقيقة لم أكن ناسيًا أو متناسياً للجارة العزيزة . . ولكنى لم أكن أعرفها بنعمات هانم . فقد غلب عليها لقب « ميمى » حتى لم أعد أعرفها بغيره . ولكن الذى أثار دهشتى أن جدى قد وجد فى الراقصة اليونانية ما ذكّره بها . والواقع أن الشبه بين الفتاتين كان كبيراً . وإن كنت لم ألاحظه ، حتى جاء الثعلب العجوز يلفت نظرى إليه ... فهل كان يفكر فى الجارة العزيزة من حيث لا أدرى ؟! وأن له فيها مآرب قد توحى بالكثير مما يغرى به جمالها ، وعزلتها . . وظروفها ؟ !

كانت امرأة شابة ، مات عنها زوجها بغير خلف أو ثروة تذكر . . وهذا ما أعلمه علم اليقين . فهى جارتنا . وقد قمت لها بواجب المعاونة ، بعد وفاة زوجها ، فيما تحتاج إليه مثيلاتها ، من إجراءات معقدة أولها القيام بإعلام الوراثة ، الذى وقفت بعده على حقيقة حالها . . . وقد كانت جميلة لعوباً ، إذ كان مرحها ودعابتها يعوزهما التحفظ . وكانت معاونتى لها سبباً فى توطيد عرى الصداقة بيننا . وهى صداقة أعلم ، عن يقين ، مبلغ براءتها . ومع ذلك فقد كان جدى يداوم معابثتى من أجلها . وقد تصورت أن مقارنته بينها وبين الراقصة اليونانية لا تعدو أن يكون بعضاً من هذه المعابثة .

ولكنى مع ذلك فوجئت بهذه المقارنة . وزادت دهشتى عند ما سمعته يقول :

— لقد أوحت إلىّ نعمات هانم بمشروع جليل !

— أى مشروع ؟

— مشروع زواج !

ولم أستطع أن أفهم تماماً ما يعنى ، وإن كنت قد شعرت بما قد يكون فيه من تلميح . فقلت :

— ولكنى لم أفكر بعد فى الزواج .

فضحك مستهزئاً بى !

— ومن قال لك إنك أنت العريس ؟ !

— ومن يكون إذن ؟!

ولشد ما كانت دهشتى عند ما قال جاداً :

— أنا . . . أنا العريس ! !

وفى الحقيقة لم أكن فى بادئ الأمر مستريحاً من إصراره ، فى أثناء حديثنا عن « ميمى » باسمها الرسمى . . . « نعمات هانم » . وشعرت من هذه اللهجة أن للأمر ما وراءه . وأنه يخفى شيئاً لا يرضى ولا يسر ، وأن ما تصوّرته دعابة ومعابثة قد ينقلب جداً . . ومع ذلك فقد كنت أكذب هذه الهواجس وأكذب معها نفسى ، فقلت له ، دون أن أضحك :

— أتدرى أنك تذكرنى بالسيد جحا ، عندما أراد الزواج من بنت السلطان ؟

— كيف ؟

— عندما قال إن زواجه على وشك أن يتم . ولم تبق إلاّ موافقة السلطان وابنته !

— ماذا تقصد ؟

— أقصد أنك موافق . وأنا موافق . . ولكن ابنة السلطان ! هل هى موافقة ؟ . . . هل استطلعت على الأقل رأيها ؟ !

ولقد كانت مفاجأة قاسية عندما قال فى هدوء :

— طبعاً . . لقد تكلمت معها فى الموضوع . . . وهى راضية !

وشعرت أثناء الحديث أن الرجل الذى أمامى ليس بالرجل الذى

أعرفه . لقد تغير ، كأن صحوة من شباب قد دبّت فى عروقه ، فأحيت ذكرى فحولته وأخرجته عن وقاره . وعلى الرغم من إشفاق عليه ، كان هذا الإشفاق لا يخلو من غضب ، فقد قام فى ذهنى أنه خاننى . طعننى من الخلف ، وأنا أعز أصدقائه . وأن الواجب كان يقضى عليه بأن يتفاهم معى ، قبل أن يتفاهم مع جارتنا العزيزة . .

وكأنما أحسّ بما أنا فيه من غضب ، وأن من المناسب أن يهوّن الموقف علىّ ، فقال :

— لقد فكرت فى الموضوع طويلا . وفكرت بطريقة عملية . أنت لا ترث منى شيئاً . فأموالنا جميعاً قد آلت إليك . أمّا عمرى فلم تعد فيه بقية ترثها . . ! ! لم يبق فيه إلاّ القليل ، ونعمات هانم ، بإغرائها وفتنتها كفيلة باستهلاكه فى وقت قريب ! . . ومعاش الحكومة ، لا تستطيع أيضاً أن ترث فيه . . أمّا نعمات فتستطيع . . وهى فى حاجة إليه ! ! !

ولم أتمالك فى حزنى من الابتسام وأنا أقول :

— أى أنك بهذا الزواج مجرد فاعل خير !

— تماماً . . .

— وتنسى أنك فيه تنتحر . . !

فقال هازئاً :

— كأنك أنت الآخر تذكرنى بالطبيب يعود من جديد !

وتركنى فى حيرتى وغضبى وهو يدور حول نفسه كما لو كان فى حلبة من حلبات الرقص . وأخذ فى دورانه يصيح ويهتف كما لو كان يقود إحدى المظاهرات الصاخبة :

— لتسقط أعراض الشيخوخة !

ولكن أعراض الشيخوخة لم تسقط . إنه هو الذى سقط فجأة يترنح بين ذراعىّ وأنفاسه اللاهثة تتردد على وجهى كما لو كانت سياطاً تلسعه . وبدا الأمر واضحاً . فقد آن لأعراض الشيخوخة فى النهاية أن تثأر لنفسها من هذا الشيخ العنيد الذى أباها واستنكرها على نفسه . وقد تهيأت لها الظروف الملائمة لاختيار زمان المعركة ومكانها . فأنشبت فيه أظافرها . وإذا به يسقط فاقد الوعى بين ذراعى ، وأنا أحمله إلى فراشه متلاحق الأنفاس ، ضيق الصدر ، يلهث فى نوبة قلبية مفاجئة .

وأخيراً جاء الطبيب ، ونشطت الحركة فى غرفة المريض ، وبين خدم الفندق وموظفيه . كل يعاون بقدر ما يستطيع . وأنا بينهم واقف فى حيرة العاجز الذى لا رجاء فيه . لا أدرى ماذا كان علىّ أن أفعل . وجعلت أفكر فى جدى . وأدهشنى أن تفكيرى لم يكن خالياً من اللوم ! اختار لوفاته ساعة غير ملائمة ، كتلك التى اختارها لميلاده . . كما أنه فى الحالتين أساء اختيار المكان ! وقد عمد إلى طعنى من الخلف طعنة طائشة لم أكن أتوقعها منه . . وها هو ذا بعد ذلك يتركنى وحيداً من بعده . . حتى اسمى الذى طالما كان ينادينى به ،

قد عدل عن ذكره . . ، ولم يعد يردد إلاّ نداءً واحداً . . نداءه لأمه . . . يناديها وهو غائب عنا جميعاً ، فى عبارات لاهثة ومتلاحقة . . كما لو كان قد اختزن هذا النداء بين ضلوعه ثمانين عاماً . . ثم استطاع فى النهاية أن يطلقه دفعة واحدة .

وأخيراً انقطع النداء . . وساد الصمت . . وسكنت . . الحركة . . وتقدم منى الطبيب مصافحاً وهو يقول :

— البقية فى حياتك . .

وجہات نظر

وجهات نظر ...

بعد أن انتهيت من ارتداء ملابسى ، قالت لى زوجتى ، ونحن فى طريقنا إلى تناول طعام الإفطار :

— تعرف أن خطيبة « أمجد » لطيفة ، وحلوة ... « وبنت ناس »!

فلم أتمالك نفسى من الضحك . أمّا هى فقالت مندهشة :

— ما يضحكك ؟ !

— كلامك !

— وما المضحك فى كلامى ؟

— يكشف عن عقلك الباطن . . وما تخلف فيه من رواسب ..!

— وهل فيه من الرواسب . . والمساخر .. ما يدعو إلى الضحك ؟

فأجبت متفلسفاً :

— المساخر ، والمآسى ، والأحلام ، والحقائق ، راسبة فى عقول الناس جميعاً . .

— دعنا من عقول الناس ! ولنقتصر على عقلى أنا . ماذا رأيت فيه من مضحكات . . . ما دمت يا مولانا تقرأ الغيب ، وتعلم ما تخفى الصدور . .؟ !

وعلى الرغم مما بدا فى لهجتها من تهكم ، أجبت فى عناد :

— رأيت على الأقل واحدة ! !

— وما هى ؟

— إنك ما زلت رجعية !

فأخذتها المفاجأة ، وأجابت بين عابثة ومؤنبة :

— يا فتاح يا عليم . . . ولماذا من فضلك ؟

— لأنك تعيشين فى غير عصرك !

— وفى أى عصر أعيش إذن ؟

— فى عصر قد ولى وانقرض !

— ما دام قد ولى وانقرض فكيف بالله عليك أعيش اليوم فيه ؟ !

— لأنك ما زلت تتعلقين بأهدابه !

فضحكت وهى تقول :

— وهل هذه هى الرجعية التى تتهمنى بها ؟

— طبعاً . . الرجعية هى العود إلى الماضى .. هى التلفت إلى الخلف بدلاً من التطلع إلى الأمام . . وأنت دائماً ترجعين إلى الماضى ، بينما الحاضر أمامك . . ومع ذلك ترفضين الاعتراف به . .

وهنا بدأت تتحفز ، شعرتُ أنها قدرت أن الهجوم فى هذا الموقف أجدى وأنفع من الدفاع ، وأنها يجب أن تبادر بأخذ الزمام . فردت على ساخرة :

— هل أستطيع أن أطلب منك خدمة ؟ !

— وهل أنا موجود فى هذه الدنيا إلا لخدمتك ؟

— أشكرك . . . والآن هل يمكنك أن تساعدنى بعقلك الكبير على فهم المقصود من هذه السخرية التى لا مبرر لها . . ونحن ما نزال فى أول النهار ؟ !

وتوجست خيفة من سؤالها ، وما فيه من تحفز ، أغلب الظن أنه إيذان ببدء العاصفة .

فأسرعت قائلا ، وأنا أطلب لنفسى السلامة :

— أقسم لك إنى لا أسخر منك .. ولم يخطر ببالى شىء من ذلك... وإنما أقول الحقيقة !

فردت بنفس اللهجة المتحفزة :

— الحقيقة ؟ !

فلم أجد بدًّا من التراجع قليلا ، فقلت :

— أو على الأقل ، ما أظن أنه الحقيقة !

وهنا ردت بلهجة حاسمة !

— من فضلك لا داعى « للتريقة » .

وانقلب الموقف . وشعرت بأنى أصبحت الطرف الضعيف فيه . وأن على أن أشرح ما دعانى إلى التورط فى اتهامها بالرجعية نتيجة للتيه الذى ذهبت إليه فى مجاهل عقلها الباطن .

فقلت لها :

— ألم تقولى إن خطيبة « أمجد » . . . « بنت ناس » ؟

فأجابت مندهشة :

— وما العيب فى ذلك ؟ !

وهنا بدأت أشرح :

— ألسنا جميعاً « أولاد ناس » ؟.. هل تعتقدين أن الممتازين منا ، هم وحدهم ، الذين جاءوا إلى الحياة عن الطريق الطبيعى للإنجاب ؟ ! بينما خلق الآخرون بطريق الصدفة ...؟! من غير ذلك التعاون المشروع بين الأب والأم ؟ !

فضحكت قائلة :

— أقصد أنها من ذوات الحسب والنسب .. من عائلة كريمة .

— وهذا ما فهمت من كلامك . وهو ما دعانى لأن أقول إنك ما زلت رجعية ، تؤمنين بنظام الطبقات ، بعد إن عفّى عليه الزمان..!

وبدأت سخريتها تكتسب مزيداً من الجدية وهى تجيب :

— أعتقد أنك فى تقدميتك . . أو كما أعرفك . . تؤمن بحرية الرأى . . . وأن لكل منا رأيه . . وكما أحترم رأيك . . يجب أن تحترم رأيى . . ولا تعود مرة أخرى إلى فلسفتك الفارغة ، التى لا فائدة منها فى إقناعى بمهاتراتك . . . فأنا مؤمنة بما أعتقد . . ومحاولاتك الفاشلة فى إقناعى بغيره لم تفلح إلا فى تصديع رأسى . . . وخير من هذا كله

أن توفر على نفسك هذا العنت . . وأن تترك هذا الحديث المعاد . . وأن تعمل عملا مفيداً . .

فقلت لها ، وأنا أعجب لهذا العناد ، وأعجب فى نفس الوقت به :

— وهل هناك أفيد من حملك على الاعتراف بالحق ، وقد تعلمنا جميعاً أن الرجوع إليه فضيلة !

فردت هازئة :

— هناك فضائل أخرى كثيرة ، أحرى بك أن تبحث عنها !!

فقلت باسماً :

— هل لك أن ترشدينى إلى واحدة منها ؟

وأجابت بدون تردد ، وهى تضحك ساخرة :

— طبعاً . . عليك أن تنزل من برجك العاجى ، وتفكر معى فيما يجب أن نقدم اليوم فى حفلة العشاء من طعام .. !!

• • •

وحفلة العشاء التى كانت تشغل كل تفكير زوجتى ، هى الحفلة التى دعونا إليها الأستاذ « أمجد » وخطيبته تكريماً لهما بعد عقد القران . . . فقد انتهت فترة خطبتهما . . وتم عقد قرانهما . . وسوف يعقب ذلك حفل الزفاف .

وفى الحقيقة كنت أسأل نفسى ، لماذا يتم الزواج عندنا على كل هذه المراحل المتعاقبة . . ؟ وهل يقصد منها أن تكون مشتهيات لسعادة

مرتقبة ؟ أم هى خطوات مترددة تتمهل الوصول إلى غاية غير مأمونة ؟ !

وسواء أكانت هذه المراحل مدًّا لفترة الأحلام السعيدة . . . أم خرفاً من مواجهة الزواج على حقيقته المجردة ، فما من شك فى أنها ، على الأقل فى رأيى ، ظاهرة تردد أو استحياء ، لا داعى ولا محل لهما ، والإنسان مقبل على أسعد فترات حياته . . الفترة التى يستكمل بها ، كما يقال ، نصف دينه ، ويدخل فيها دنياه .

وكنت فى تعصبى لأفكارى ، أرى فى هذه الظاهرة تعقيدات مفتعلة ، أردناها لأنفسنا . . إرضاء لنزعة سخيفة من حب التظاهر ، ومزايدة أسخف فى الغرور والادعاء ، تدفعنا إليها رواسب ذميمة من رجعية عاطفية لا تزال تتحكم فينا جميعاً ، وعلى مختلف درجاتنا . من غير حاجة ولا مبرر . . ناسين أن الحياة بسيطة ، وأن جمالها فى بساطتها .

المهم أن الحفلة التى اعتزمنا إقامتها فى المساء تكريماً للعروسين ، كانت واحدة من سلسلة الحفلات التى يتعين على الأهل والأصدقاء ، أن يقيموها عادة فى فترة ما بين عقد القران وحفل الزفاف . . . وهى واجب علينا بصفتنا من الأقارب الأقربين . . كما أنها وثيقة تضمن لنا ، على رءوس الأشهاد ، الحق فى أن نكون بين أوائل المدعوين إلى حفل الزفاف !

وإذا كنت أعتقد أن هذه الحفلات ومثيلاتها هى فى الواقع ، من صميم اختصاص ربة البيت ، وهو أمر أرتاح وأغتبط له أشد الراحة

والاغتباط ، لمسايرته لما فى طبعى من ميل إلى التراخى يدفعنى إلى الزهد فى مثل هذه الأمور . والعزوف عن التدخل فيها ، إلا أننى هذه المرة ، لم أجرؤ على ترك زوجتى وحيدة فى ممارسة اختصاصها . . وإلا عدت ذلك إهمالاً لا يغتفر من جانبى ، وتقصيراً فى القيام بواجب معاونتها فى هذه المناسبة الهامة ، التى لا يجوز أن أقف منها موقف المتفرج ، فالسلبية هنا تثير ولا شك ثائرتها ، وقد تذهب فى تأويلها مذاهب شتى ، أقلها اتهامى بالبخل . . أو بعدم الاهتمام بالناس . . . وهذا أضعف الإيمان .

فقلت لها ، وقد طلبت منى المعاونة :

— أريد أن أعرف أولا الأصناف التى فكرت فيها !

وفى الحقيقة كان سؤالى ماكراً ، فأنا أعرف بالخبرة والتجربة ، مدى ما تتمتع به من إرادة قوية ، وقدرة فائقة على التنظيم والإدارة .. وأنها لا بد قد فكرت فى كل صغيرة وكبيرة ، وأن ما فكرت فيه هو الذى سيتم تنفيذه . أما طلبها أن أشترك بالرأى معها ، فهو لا يعدو أن يكون إجراء شكلياً لمجرد المجاملة ، وأنها سوف تتناساه إذا ما حازت الوليمة إعجاب المدعوين . . . كما أنها سوف تتذكره وتحاسبنى عليه ، ناسبة إليه وإلىّ مسئولية الفشل إذا لم يقدر للوليمة ما كانت ترجو لها من نجاح !

ولقد صدق ظنى عندما أجابت :

– لقد فكرت فى كل شىء . . ولا ينقصنى إلا الخضار !

وكأنما شاءت العناية الإلهية أن تكون فى عونى ، إذ ارتفع فى نفس اللحظة صوت من الشارع يصيح :

– العال البلدى . . يا خرشوف .

فقلت لها :

– وما عيب الخرشوف ؟

وعقبت ضاحكاً :

– أظنه أكل الذوات ! !

فلم تعبأ بما فى لهجتى من تهكم ، وأسرعت تقول :

– والله فكرة مدهشة .. والبائع بالباب .. يكفينا مشقة الذهاب إلى السوق ! !

* * *

ووصل بائع الخرشوف من سلم الخدم إلى المطبخ . . وكان كغيره من مئات الباعة المتجولين ، الذين يطوفون الشوارع منذ الصباح المبكر ، وأكتافهم تنوء بما يحملون من أقفاص الخضر والفاكهة المختلفة الأثقال والأحجام . يذرعون المسافات الطويلة التى لا يعرفون مداها ، وما كانوا ليعرفوه ، وأذهانهم مشغولة بالتفكير فى الرزق الحلال ، وفى سعيهم من أجله . ولو تحررت عقولهم من قيود ما هم مقيمون عليه من جهد وشقاء لاتسع وقتهم لإحصاء خطواتهم ، ولتعداد النداءات المدوية ، التى

يطلقونها من حناجرهم إعلاناً عن وجودهم ، ولعلهم عندئذ ما يبذلون فى سبيل لقمة العيش من جهود مضنية قل أن يعرفها أو يقدرها لهم عملاؤهم المحظوظون الذين تختلف أذواقهم ، وطباعهم ، وأمزجتهم ، فتارة يجدون عندهم العطف والقبول ، وتارة لا يجدون غير الصد والإعراض ، إما لأن الصنف المعروض لا يروق لهم ، وإما لأنه فى الأسواق أقل ثمناً مما يطلبون ! !

ولقد كان بائعنا واحداً من هؤلاء . . ومع ذلك فقد كان فيه الكثير مما يلفت النظر . كان هيكلا متداعياً من عظام رقيقة ، يحتويها جلباب ممزق ، تبرز من خلاله ساقان نحيلتان ، لا يمكن التكهن بسن من تحملانه ، ولا بمقدار ما عليه قامته من طول أو من قصر ، فقد جار عليه الزمان حتى فقدت هذه القامة ما كانت عليه فى يوم من الأيام من استواء . تقوّست ، وظلت على تقوسها . سواء كان القفص محمولا على كتف صاحبها ، أو مرفوعاً عنه ، وإذا كانت التجاعيد التى حفرها الشقاء والتعب على جبينه ، قد طمست معالمه حتى أصبح من المتعذر معها تقدير عدد السنين التى قطعها الرجل فى موكب الحياة ، فإنها – على كل حال – قد أفصحت عن مدى البؤس الذى عاناه . . . ومع ذلك فقد كانت القناعة ، وكان الرضا ، من السمات البادية من ثنايا تلك الابتسامة المشرقة على محياه .

ولعل زوجتى قد تأثرت بمنظر الرجل ، وبما بدا عليه من وداعة

وطيبة . فأخذها الإشفاق عليه ، والعطف لحاله ، ووجدت نفسها ، من حيث لا تدرى ولا تشعر ، منساقة إلى مجاملته والتودد إليه . فلم تساومه فى السعر الذى طلبه . وسارعت تقول ، كما لو كانت بوقاً من أبواق الدعاية والترويج لبضاعته :

— أما حتيقة خرشوف عظيم . . كبير وطرى . . وسعره مناسب . . يستحق ثمنه .

وبينما هى تحاول أن تدفع له ما طلب ، وقع نظر صاحبنا على اللحم وسكين الطاهى تعمل فى تجهيزه وإعداده . فإذا به وقد تسمّر فى مكانه ، واتسعت حدقتاه ، وهو فاغر الفم ، يحملق فيما يرى بعينين تكاد حدة بريقهما أن تكون هى الأخرى نصلا شحذه الحرمان والجوع . . ليقطع !!! ولكنه كان نصلا حائراً لا يدرى ماذا يقطع . . فقد كان صاحبه خاوى الوفاض . . صفر اليدين . . عاجزاً . . طيب القلب . . لا يقوى على الشرّ .

ورأته زوجتى على هذا الحال ، فاستبد بها الخوف والرعب ، وأسرعت إلى جانبى كأنما تلتمس الحماية . . وهى تقول هامسة :

— أعوذ بالله ! يا رب الطف . . عينه رصدت الأكل . . حسده خلاص . .

ولم يسمع الرجل كلامها ، وما كان له أن يسمع ، ولكنه من غير

شك قد أحس بما يساورها من ظنون ، إذ ما لبث أن عاد إلى طبيعته . . صورة صارخة للحرمان والألم . .

واعتراه الارتباك والخجل ، وهو يقول :

— اللهم زد وبارك . . لا مؤاخذة يا ست . . اعذرينى . . والله أنا لا أحسد ولا أعرف الحسد . . أصل من مدة طويلة لم أذق ، لا أنا ولا أولادى ، طعم اللحم ! !

وقد كنا فى أواخر شهر مارس ، ولم يكن قد مضى على أول أيام عيد الأضحى وقت طويل ، فقد تصادف أن جاء يوم ١٠ ذى الحجة موافقاً ليوم ٢١ مارس ١٩٦٧ — فقالت زوجتى للرجل وقد عاودهما اطمئنانها ، واستردت بعض أنفاسها :

— والعيد ؟ !

— فأجاب متعجباً :

— أى عيد يا ست ؟ ! أيامنا ، بعيد عنك ، كلها واحدة . . لا عيد . . ولا غير عيد . .

وتذكرت ما كان من إشارته إلى حرمان أولاده ، وأردت التخفيف من ثقل الجو الذى خيم علينا ، فسألته :

— أولادك كثير ؟

— سبعة ؟

— بارك الله لك فيهم . . هل منهم من يعمل ؟ !

فتنهد الرجل وقال :

— إنى أعول الجميع . . لقد تزوجت على كبر !

فالتفت إلى زوجتى ، وأنا أقول مازحاً :

— أظن عريسنا الأستاذ أمجد لو رأى ، هو وخطيبته ، هذا الرجل لآمنا معاً بفائدة تحديد النسل ! !

ولكنها لم تبتسم لهذه المحاولة العقيمة فى الترويح عنها ، وأغلب الظن أنها لم تسمع كلامى ، وأنها كانت غائبة عنه .

ولشد ما كانت دهشتى عندما رأيت هذا البنان الذى طالما تنسمت منه أزكى روائح باريس ، وهذه الأنامل الرقيقة التى تعودت لمس الحرير ، ومداعبة الثمين من ناعم الفراء ، وتلك الأظفار المخضبة بأجمل الألوان وأرقها ، كلها تمتد كمخالب جوارح الطير لتنقض من غير تردد ، وفى إقدام عجيب ، على اللحم المنثور فوق مائدة المطبخ ، وتقتطع منه ما تستطيع ، وتناوله لبائع الخرشوف ، وهى تقول :

— هذا لك ولأولادك ؟

ثم تلتفت إلى مبتسمة :

— إذا كان قد فاتنا توزيع اللحم فى العيد ، فلا بأس من أن نوزعه بعد فوات الأوان بقليل . .

* * *

وانصرف الرجل ، ونحن نسمع دعواته تتردد مع وقع خطاه المسرعة ، وبعد فترة وجيزة من الصمت ، صاحت زوجتى :

— يا خبر ؟ ! وما العمل ؟

— خير إن شاء الله ؟ !

— اليوم يوم اثنين

— وما ضرر أن يكون اليوم يوم اثنين ؟

فقالت غاضبة :

— أين ذكاؤك ؟ ألم يصل إلى علمك بعد أن بيع اللحم ممنوع فى يوم الاثنين ؟ !

فقلت ضاحكاً :

— وصل !

— إذن عليك أن تعلم أنى عندما أعطيت اللحم لبائع الخرشوف كنت أنوى شراء غيره من السوق ، ولم يخطر ببالى أن اليوم يوم اثنين ، ولا أدرى الآن ماذا أصنع للضيوف ؟ !

— اصنعى لهم الباقى .

— لا يكفى ؟

— يجب أن يكفى . . اللهم إلا إذا كنت تريدين استرجاع اللحم

من بائع الخرشوف !

— رجعنا للتريقة ؟ !

ثم قالت :

— ومع ذلك فأنت المسئول !

فصحت مذعوراً :

— أنا المسئول ؟

فقالت فى ثبات عجيب :

— نعم أنت المسئول عن هذه الورطة !

— كيف ؟ !

— لولا فكرتك عن الخرشوف لما وقعنا فيها . . !

فعقبت ضاحكاً :

— لقد كانت فكرة مدهشة منذ دقائق . . ألا تذكرين ؟ !

— ولكنها على كل حال هى السبب . . وأنت صاحبها . . هل تنكر ؟

فقلت وقد نفد صبرى :

— وماذا على أن أفعل الآن ؟

— فكر معى !

فقلت غاضباً :

— ما دمت لا تريدين الاكتفاء بالباقى ، فليس أمامنا إلا أن

تدعو الله أن يسد نفس المدعوين !

فابتسمت برغم حرج الموقف ، وقد كانت فى الحقيقة راضية ، سعيدة بما فعلت ، وقالت :

— كنت أظنك أكثر ذوقاً ، فتدعو الله أن يبارك فى الموجود حتى يكفى ! !

فضحكت وأنا أقول :

— لقد كنت أكثر منك قناعة فطلبت الأسهل ، وما كنت أظنك تطمعين فى أن يعاملنا الله معاملة السيد المسيح ، فينزل علينا مائدة من السماء ! ! !

* * *

وفى المساء ، توافد المدعوون ، وسمعت زوجتى الكثير من ثنائهم وإطرائهم ، وطربت له ، وبعد العشاء ، تفرق الضيوف إلى جماعات صغيرة ، تتبادل فيما بينها أحاديث السمر ، وربة البيت راضية عن نفسها .

ولقد شاهدتها من بعيد ، وهى تسعى بين ضيوفها بصفحة عليها أكواب المرطبات ، أبت فى حرصها على مجاملتهم ، والحفاوة بهم ، إلا أن تحملها بنفسها إليهم .

وعاد إلى خاطرى ، وأنا أنظر إليها ، ما كان من صنيعها فى الصباح مع بائع الخرشوف . وما تجلى فيه من عطفها وحنانها ورقتها . ثم قدرتها

فى المساء على خلق هذا الجوّ السعيد بمثل هذا الإتقان والرشاقة والجمال وكيف أنها بين الصباح والمساء ، قد كشفت عن طبيعة تفيض بالخير والرغبة بقدر ما تتعشق الأناقة والذوق الرفيع ، وتعرف كيف تستمتع بهما ، وتشرك الغير معها فى هذا المتاع . وعندئذ ساورنى شعور غامض بأنى قد ظلمتها . وإذا بى أردد على استحياء ، وقد تذكرت أفكارها : ربما لم تكن كلها أفكاراً خاطئة !

• • •

أما هى فقد استمرت فى سعيها بين الضيوف بصفحة المرطبات ، وعندما وصلت إلى مقربة من أحد الأركان الجانبية ، وجدت سيدتين من أعز صديقاتها ، صديقات الطفولة ، والدراسة ، والشباب ، يدور بينهما هذا الحديث :

— يا أختى اعذرى . . الدنيا أزمة . . والأسعار فى ارتفاع . . . والنبى فيهم الخير . . . على الأقل اجتهدوا وعملوا الواجب . . وكل واحد وقيمته . . !

— يعنى كفاية قيمته . . وينسى قيمة الضيوف ؟ !

— وأنت نسيتى أن اليوم يوم اثنين . . وبيع اللحم ممنوع ؟!

وارتفعت قهقهة صاحبتها وهى تعلق فى تهكم :

— وطبعاً احترام القانون واجب عند أصحاب الأصول . . . حتى لو مات الضيوف من الجوع !!

وحاولت الأخرى أن ترد عليها ، ولكنها فوجئت ، هى وصاحبتها ، بربة البيت ، وهى تقدم لهما صفحة المرطبات ، وثغرها يفتر عن ابتسامة عريضة ، أرادت بها أن تلقى فى روع الصديقتين العزيزتين . أنها لم تسمع شيئاً مما كان يدور بينهما من حديث .

ولم تكن فى الحقيقة ممثلة بارعة ، بقدر ما كانت إنسانة سعيدة . فقد كانت تتصور بائع الخرشوف ، هو وزوجته وأولاده ، حول ما استقطعته لهم من لحم هؤلاء الضيوف ، فتشعر براحة كبيرة ، وهى تراهم على البعد يلتهمونه فى شغف ولذة ، وتكاد تسمع منهم حديثاً يختلف عن حديث الصديقتين . كله دعاء وعرفان للجميل ، يؤكد لها أن صنيعها لم يذهب هباء عند هؤلاء الضعفاء ، مثلما ذهب عند أصدقائها الأعزاء . . .

ولم تكن ، مع ذلك ، تشعر نحو هؤلاء بقليل أو كثير من الغضاضة . فقد كانت ، فى سعادتها بأصدقائها الجدد ، الذين لا تعرفهم ، مستعدة لأن تغفر للقدامى من أصدقائها كل شىء . . ! !

ونظرت إلى زوجها ، وهو يمرح كعادته بين الضيوف ، وتذكرت فلسفته ، التى طالما صدعت رأسها ، وهى تتساءل باسمة :

— ربما لم تكن كلها فلسفة فارغة !

• • •

راعية الأدغال

داعية الادخار

دخل الممرض على الدكتور « بدر الدين سامى » وهو يعلن مبتسماً :

ـ الأستاذ خليل موجود !

ورفع الطبيب عينه عن العدسة التى كان يفحصها بالمجهر ، وهو جالس بغرفته ، نصف المظلمة ، ونظر إلى الممرض ، متسائلا فى هدوء:

ـ الأستاذ خليل ؟!

ـ نعم ! الأستاذ خليل إبراهيم . . . جار سيادتك !

وعجب الدكتور بدر الدين من حضور الأستاذ خليل إليه فى عيادته ، الأمر الذى يحدث للمرة الأولى ، ولم تكن له من قبل سابقة . فقد كانت الروابط التى تجمع بينهما كثيرة ، وكانا لا يعدمان الفرص المتعددة للمقابلة فى خارج العيادة .

فهما يقطنان متجاورين فى عمارة واحدة : يتقابلان ويتزاوران بحكم هذا الجوار . وبينهما من الود والصداقة أكثر مما يقوم بين جارين عاديين ، من المودة والمجاملة العابرة . ولعل هذه الألفة ، التى أحكمت روابطها علاقة الجوار ، تعود بعد ذلك إلى أكثر من سبب . وذلك على الرغم من الطريق الذى سلكه كل منهما فى حياته .

فالدكتور بدر الدين ، طبيب مشهور من أطباء العيون . سلخ معظم حياته فى التدريس بكلية الطب ، فى جامعة القاهرة ، وتخرج على يديه الكثيرون ممن زاملوه بعد ذلك فى مهنته . وعندما اقتنع بأنه أدى واجبه فى ميدان التدريس ، واطمأن إلى أن تلاميذه أصبحوا قادرين على حمل هذه الأمانة من بعده ، استقال من وظيفته ، واقتصر على ممارسة مهنته فى عيادته الخاصة ليكون أكثر تفرغاً لمرضاه ، وهم بحمد الله كثيرون . . .

أما الأستاذ خليل إبراهيم ، فقد كان ينعم ، هو الآخر ، بالحياة الهادئة الرتيبة التى كتبت على أصحاب المعاشات ، بعد خدمة طويلة فى القضاء ، تمرس خلالها بمختلف ألوانه وفنونه ، وتدرج فى جميع مراحله ، حتى وصل إلى أعلى مراتبها ، مرموقاً بين زملائه ، ومعترفاً له بين الناس بالنزاهة والفضل وحسن السيرة . وقد شاءت الظروف ألا يخلد إلى الراحة كما كان يشتهيها ، وأن يستعان بخبرته فى عمل من أعمال التأمين ، بإحدى شركاته التى آلت إلى الدولة بعد التأميم .

ولقد شاءت متاعب الشيخوخة وأمراضها أن تتكالب على الأستاذ خليل ، وأن تلح عليه إنذاراتها المتكررة فى الالتجاء إلى استشارة صاحبه . خصوصاً وقد بدأ يشعر باحتقان فى عينيه ، لم يفلح فى وضع حد له ، بعد أن استعان عليه بالصبر أولاً ، ثم بالتقطير ثانياً . ولهذا السبب كانت أولى زياراته لصديقه الدكتور فى عيادته .

ولم يكن الحال مروّعاً يدعو إلى الإحجام والتردد ، كما سبق للأستاذ خليل أن تصور . فقد كان الدكتور حفيّاً به ، ملقياً كل باله إلى شكايته . كشف على عينيه . ثم على قاع العين . واختبر قوة الإبصار . وأخيراً قال له مداعباً :

— المسألة بسيطة . إنك لا تعدو أن تكون محتاجاً إلى نظارتين ؟ ! واحدة للقراءة . . وأخرى للمشاهدة . . !

فضحك صاحبه وقال :

— الحمد لله أن جعل للإنسان عينين اثنتين فقط ! وإلا لكنتُ فى حاجة إلى نظارات لا أعرف . . لا أنا ولا أنت عددها .

وقال الدكتور وهو يضحك بدوره :

— على كل حال كانت فرصة طيبة . دفعتك إلى زيارتى فى العيادة ، وإن كنت فى الحقيقة لا أفهم لماذا كان ترددك فى الحضور كل هذه المدة ؟

وأجاب الأستاذ خليل معتذراً :

— الأمراض تثير فى نفسى حقيقة قاسية لا أريد أن تُنغّص علىّ حياتى ولم يبق منها إلا القليل . ولذلك أفضل الواقع فيما يتعلق بصحتى ، ولا أريد أن أطلع على الغيب وعلى ما قد يكشف فى شأنها عن مفاجآت لا داعى للوقوف عليها . ولكن ما حيلتى ، واحتقان عينى لم يعد غيباً ، بعد أن تمثل فيما أشعر به من ألم يكاد يذهب بأهم متعة بقيت لى فى

شيخوختى ، وهى القدرة على الإبصار . . . وما تتيح لى من فرص المشاهدة والقراءة التى تربط بينى وبين عالم قد خلا ، لمثل من فى سنى ، من الكثير مما كان ينعم به من متع الشباب . وهكذا ترى أن الخوف هو الذى دفعنى إلى زيارتك . . الخوف من التبذير فى البقية . . .

فقاطعه الطبيب مازحاً :

— البقية الباقية من صحتك ! أليس كذلك ؟ ورأيتَ فى النهاية أن تدخر منها ما ينفعك فى غدك . . تماماً كما تفعل بمالك . . ثم تذكرت فجأة أن الطبيب هنا ، هو بنك الادخار . . .

وضحكا معاً . . .

• • •

وكان الأستاذ خليل أثناء انتظاره ، وتردده على العيادة ، قد تعود أن يقرأ فى لوحة معلقة على الحائط أسعار الكشوف المختلفة التى يجريها الطبيب على مرضاه . وقد شاهد الممرض يسأل بعض المرضى عما يرغبون فى استشارة الطبيب من أجله . ويتقاضى منهم الأجر عن كل حالة . فى حين يترك البعض الآخر ، وهو غير قليل ، من غير استفهام ، ولا سؤال ، ولا مطالبة . . . وقد كان هو واحداً من هؤلاء ! لم يسأله الممرض . ولم يتقاض منه أى أجر . الأمر الذى سبب له كثيراً من الضيق ، ودعاه إلى التفكير فى طريقة يسدد بها ما عليه من أتعاب لصديقه دون إحراج . ولم يجد من المناسب بحث الأمر مع الممرض ،

مفضلا الكلام فيه مع الدكتور . فقال له ، بعد أن انتهى العلاج :

— والآن يا دكتور لم يبق بعد خالص شكرى إلاّ موضوع الأتعاب ! فقد رأيت الممرض يتقاضاها من بعض الناس . . دون أن يطلب منى شيئاً .

فابتسم الطبيب ، وهو يقول :

— إنه يتصرف تنفيذاً لتعليماتى .

— ولكنه كما رأيت يتوسع فى تنفيذ هذه التعليمات .

— كيف ؟

— يطبقها على الكثيرين . . .

وعلق الأستاذ خليل ضاحكاً :

— حتى ليغلب على الظن أنك فتحت العيادة مجاناً . . !

— أبداً لم أفتحها مجاناً . . وما يأتى منها يكفينى والحمد لله . .

— إذن اسمح لى أن أساهم فيه !

— ولكنه أكثر مما يدعو لمساهمتك فيه . . حتى إنه يسمح لى بالتصرف وفقاً لمزاجى . . !

وابتسم وهو يقول :

— وما أظنك تريد تعكير هذا المزاج . . إنها سعادة كبيرة أن يشعر الإنسان بالاستغناء . . بالتحرر من قيود المادة ، ليرضى الكثير من نوازعه وميوله وأهوائه . . قد يكون هذا الشعور نوعاً من الترف . .

ولكنه ترف عاطفى ، يشبع مزاجى كما قلت لك . .

فضحك الأستاذ خليل من هذا النوع الجديد من الترف الذى استحدثه الدكتور بدر الدين ، وقال :

– وترى أن لا أدفع لك شيئاً مساهمة منى فى إشباع هذا المزاج !

وأجاب الدكتور جاداً .

– لقد دفعت . . ودفعت الكثير . . إنك بصداقتك تعطينى أكثر مما آخذ منك . . وهكذا ترى أنى أنا المدين لك على كل حال . .

– وهل أغلب مرضاك من أصدقائك ؟

– هناك الكثيرون ممن لا أعرفهم . .

– ومع ذلك لا تتقاضى منهم أجراً !

فضحك الدكتور وهو يقول :

– وأنا فى هذا تاجر ماهر . . أعقد معهم صفقات مجزية . . أنا أول الرابحين فيها !

وإزاء نظرة الأستاذ خليل ، وما فيها من تساؤل ، استمر الدكتور يقول :

– صدقنى ! هذا صحيح . لأنى أقيم معهم صداقات مبرأة عن المادة . وهذه الصداقات ، هى عندى ، أرفع مراتب العلاقات الإنسانية . وإقامتها لا تكلفنى الكثير . فالمال موفور والحمد لله . أكسب منه كفايتى لحاضرى . وأدخر منه كفايتى لمستقبلى . . بل أزيد من كفايتى .

حتى لم أعد فى حاجة إلى مزيد من الادخار . . أصبحت حراً كما قلت لك . . أتصرف على مزاجى . .

وضحك قائلا :

– وهو مزاج كما ترى . . لا انحراف فيه !

* * *

وانصرف الأستاذ خليل ساعياً إلى مكتبه . .

وعند الباب ، قابله شخص لا يعرفه . . سلمه مظروفاً مغلقاً ، وهو يقول :

– الأستاذ خليل ؟

– نعم !

– كنت أخشى أن لا تحضر !

– إنى قادم من عند الطبيب .

– الحمد لله على سلامتك .

– أشكرك يا أخى !

– هذا خطاب لك .

– ممن ؟

– من الأستاذ منصور . .

– الأستاذ منصور ؟ من الاتحاد الاشتراكى ؟

– نعم هو

– خير . ماذا يريد ؟

– لا أعلم .

ونظر إلى الأستاذ خليل مؤكداً :

– لم أطلع على الخطاب .

ومع ذلك فقد أحس الأستاذ خليل ، ولا يدرى لماذا ، بأن الرجل لم يكن صادقاً فيما يدعى .

وعلى الرغم من أن صلته بالأستاذ منصور لم تكن إلا صلة عابرة ، فإنه لم يدهش لوصول خطاب منه . فقد تصادف أن تردد عليه فى الفترة الأخيرة ، عدة مرات ، لشئون تتعلق بتنظيم إحدى لجان وحدات الاتحاد الاشتراكى العربى ، وقد كان الاثنان عضوين فيه . هذا بالإضافة إلى أن الأستاذ منصور كان يشترك معه فى اجتماع أمناء الوحدات الذى كان يعقد فى يوم الثلاثاء من كل أسبوع . فقد كان الأستاذ منصور أميناً لوحدته . وعلى الرغم من بساطة مركزه فى الشركة التى يعمل بها ، لم يكن غريباً أن يختاره زملاؤه أميناً لوحدتهم ، وهو يتمتع بكثير من الصفات . أولها اللباقة والكياسة وذلاقة اللسان مع الامتياز بقدرة فائقة على التعبير تتجلى دائماً فى الاجتماع الأسبوعى لأمناء الوحـدات حيث يصر على الكلام فى جميع ما يعرض من موضوعات . . خصوصاً موضوع الادخار ، الذى كان يتناوله فى عبارات رنانة ضخمة ، لا ندرى من أين جاء بها ، ونحن نعلم أنه محدود الثقافة ، قليل الحظ من تعليم

المدرسة . ولكنه مع ذلك كان يجيد صناعة الكلام ، كما يجيد كسب الأصدقاء . وهذه الجاذبية هى التى حققت له الفوز بأمانة وحدته دون غيره من المرشحين ، الذين ربما كانوا أكثر منه امتيازاً بمراكزهم وثقافتهم . . .

كنا نراه فى الاجتماع الأسبوعى ، يقف فى أنفة وكبرياء ، ويصيح بصوت جهير ، لا يخلو من بعض التمثيل والصنعة ، وهو يقول :

« إن خير البر أن تبر نفسك ، وخير بر النفس أن تربأ بها عن مواطن الحاجة وذل السؤال . . والطريق الذى لا طريق غيره ، للارتفاع بأنفسنا إلى هذه المرتبة الإنسانية الكريمة . . هو الادخار !!

الادخار الذى يمكن الدولة من استثمار مدخراتنا بما يعود بالفائدة علينا جميعاً . . نحن ، وعائلاتنا ، وأولادنا ، ومواطنينا . . ثم يستعير فى لباقة بعض شعارات البنوك وشركات التأمين ، وقد كان واحداً من موظفيها ، وهى الشعارات التى تنشرها هذه الهيئات فى الصحف والمجلات استنهاضاً لهمم المواطنين وحثاً لهم على الادخار الشعبى وتبصير الناس بمزايا الوثائق التأمينية ، وشهادات الاستثمار التى تصدرها فى هذا المجال . فكان يصرخ مؤكداً فى حماسة تهز المشاعر والقلوب أن الادخار هو حصن أمان للأسرة ، وأنه الدرع المنيع للوطن واقتصاده . ومن ثم فهو واجب وطنى ، علينا أن نتبارى ونتنافس فى أدائه ، وإحسان القيام به .

وكان دائماً يربط بين الادخار والكرامة . فقد حدث فى أحد

الاجتماعات أن طلب أمين اللجنة أن يقوم الأعضاء بعرض جهودهم فى مجال الادخار ، وبيان النتائج التى حققتها هذه الجهود والإدلاء بإحصائية عن عدد دفاتر التوفير فى صندوق البريد التى استطاعوا توزيعها على أفراد وحداتهم تنفيذاً لقرار اتخذوه فى الاجتماع السابق .

وكأنما أراد أمين اللجنة أن يبعث مزيداً من الحماسة والحياة فى المناقشة فدعا الأستاذ منصور إلى الكلام .

وللأسف كان اختياراً لم يؤد المقصود منه . فقد فوجئنا بالأستاذ منصور الذى أطلقنا عليه « داعية الادخار » يثير زوبعة عاصفة ، ويعلن فى معركة كلامية ، كان يخوض غمارها فى زهو واعتزاز . . . بأنه لم يفعل شيئاً ! !

وعندما بدأ العجب على الحاضرين ، قال موضحاً :

— المسألة مسألة كرامة . إن زملائى ، وهم من موظفى شركات التأمين ، لا يقبلون ، محافظة منهم على كرامتهم ، أن يدخروا فى صناديق البريد !

وهنا سأله أمين اللجنة مداعباً :

— وما علاقة ذلك بالكرامة ! ؟ هل تقصد أن الحرفة تخلق بينها وبين صاحبها نوعاً خاصاً من الالتزام ؟! حتى إن الجزار يجب أن يقتصر فى معيشته على أكل اللحوم . . والخباز يجب أن يعيش على الخبز . . والبقال على الجبن والزيتون ؟ !

فضحك الأستاذ منصور وأجاب فى لباقة :

— طبعاً لا . أقصد أن الجزار ، إذا أراد أكل اللحوم ، فليأكلها من محله . وكذلك الخباز يأكل الخبز من مخبزه . . والبقال عندما تشتهى نفسه الزيتون يأكله مما عنده . . وأن أى واحد فيهم يخرج عن ذلك ويلتمس مطلبه عند غيره يقوم بأسوأ دعاية عن بضاعته . . ، وكذلك الحال بالنسبة لموظفى التأمين ، وهم يبيعون السلع الادخارية ، فإنهم إذا حصلوا عليها من خارج شركاتهم فإنهم يكونون أسوأ إعلان عن هذه الشركات . . وهذا لا يتفق مع كرامتهم ولا كرامة عملهم .

وعلق أمين اللجنة على ذلك بقوله :

— تعنى أنك ترى أن تكون وسيلة الادخار لموظفى التأمين هى فقط عن طريق الوثائق التى تصدرها شركاتهم .

وأراد الأستاذ منصور أن لا يتحمل وحده مسئولية هذا الرأى فقال مؤكداً :

— لست وحدى صاحب هذا الرأى . ولكن الزملاء جميعاً ، فى حرصهم على كرامتهم ، يشتركون كلهم فيه . .

فضحك الأمين من هذا التحفظ الذى لا داعى له ، وقال :

— ونحن كذلك . نشترك معكم فيه . ولستم ملزمين بالتوفير فى صناديق البريد ، ما دامت كرامتكم تأبى عليكم ذلك . ولكن هل ادخرتم عن طريق شركاتكم ؟! هذا ما نريد أخذ فكرة عنه .

وهنا أعلن « داعية الادخار » فى كبرياء وكرامة :

— نحن الآن بسبيل تنظيم العملية ! !

وهكذا خرج من الموضوع كالشعرة من العجين !..

ولم يفطن الأستاذ خليل إلى مدلولات تلك الخواطر إلا عندما بدأ فى قراءة الخطاب الذى كان آخر ما يتصور صدوره من الأستاذ منصور . . .

سيدى الأستاذ خليل . . .

تحية واحتراماً ، وبعد ،

فإنى لما لمسته من سيادتكم عند لقائى معكم ، وللصلة القديمة التى تربط بيننا ، أسمح لنفسى أن أتطفل على سيادتكم بمضايقتكم ، تحت ضغط الظروف ، من حيث مرض ابنى رشدى ، ١٢ سنة ، بالكبد . وحيث إن غالبية الزملاء مسافرون فى مهمة التوعية بالادخار فى المحافظات ، ولتأخر ما سبق طلبه من البلدة . . . فإنى أرجو أن تتكرموا بإقراضى مبلغ خمسة جنيهات ، لزوم عمل تحليل ومزرعة . وإنى ما لجأت إلى سيادتكم ، إلا بعد أن عجزت عن الحصول على المبلغ . . على أن يرد لسيادتكم فى خلال هذا الأسبوع أو أول الشهر على الأكثر . . . ومرفق لسيادتكم شيك بالقيمة على البنك . وكم كنت أود الحضور شخصياً ، ولكن لحالتى النفسية ، ولخجلى من سيادتكم ، آثرت الكتابة . وإنى فى انتظار موافاتى بالمطلوب حيث إن الميعاد المحدد

الساعة ١٢ اليوم .

مع خالص شكرى ودعائى لسيادتكم ، أرجو قبول . . .

وأخذ الأستاذ خليل يقرأ الخطاب المرة تلو المرة ، وهو يعجب ..!!

لاحظ أن الأستاذ منصور يجيد صناعة الكلام ، أكثر مما يجيد الكتابة . . .

وأنه يشير إلى صلة قديمة لا تعدو أن تكون بعض مقابلات عابرة . . . ويصر على التذكير بالادخار وسفر الزملاء للتوعية به فى المحافظات ، وهو أمر لا يتفق مع مقتضى الحال !

وأشفق عليه ، وهو يراه ، يكثر من ترديد كلمة « سيادتكم » فى خطابه ، ترديداً أخرجها ، بالمبالغة فيه ، عن معنى الأدب المألوف فى توجيه الخطاب . . إلى معنى الشعور بالهوان والذل فى السؤال . . وهو الذى طالما كان ، فى احتفاظه بكرامته وكبريائه ، ينادى بالتحصن ضدهما بالادخار ..!

ولكن الأستاذ خليل قد أحس مع ذلك بصدق الرجل فى لهجته . وشعر بالرثاء والأسى لحاله . فمد يده إلى جيبه وناول المبلغ للرسول . وابتسم وهو يقول لنفسه :

— الظاهر أن الأستاذ منصور فى تحمسه لدعوته ، تذكر كل الناس ، ولم ينس إلا نفسه . ولكنه على ما يبدو مدين غير مماطل ما دام قد أرسل شيكاً بالمبلغ .

وبعد أن انصرف الرسول ، بدأ الأستاذ خليل يفكر من جديد . .

وفجأة تذكر الدكتور بدر الدين وفلسفته . . وتذكر أن المبلغ الذى دفعه يعادل على وجه التقريب الأتعاب التى كان عليه أن يدفعها للطبيب . . وإذا بيده تمتد إلى الشياك الذى بعث به الأستاذ منصور ، وتعمل فى تمزيقه ، وهو يقول :

— لعلى بذلك أرضى مزاج الدكتور بدر الدين . . فالنقود التى دفعتها هى فى الحقيقة نقوده . وسوف أحاول ، نيابة عنه ، أن أعقد بعدم استردادها صداقة جديدة ميرأة عن المادة ، لا تكلف الإنسان شيئاً كما يقول . . وإن كنت فى نفس الوقت أرجو أن أساعد « داعية الادخار » على أن يخرج من أزمته . . ويصبح قادراً على الادخار !

صاحبة العصمة

صاحبة العصمة

لحديقة فندق « البوريڤاج » بالإسكندرية شخصية خاصة ، فيها من الجمال والبساطة والهدوء ما يحببها إلى نفوس روّاد الفندق، ويجذبهم إليها ، ولعل هذه الشخصية الفريدة الجذابة تعود إلى تنسيق الحديقة نفسها ، فهى مقسمة إلى قسمين . أحدهما مجموعة من الأشجار الكبيرة الباسقة ، تحنو على القسم الآخر ، المكوّن من مجموعة أخرى من باقات الزهور الصغيرة الجميلة ، كما لو كانت تحتضنها احتضان الأم لوليدها ، وقاية لها من الحر والبرد على السواء . . . وهكذا تبدو الحديقة فى حنوها بعضها على بعض ، مظهراً من مظاهر التعاطف الجميل بين الكبير والصغير ، يسبغ عليها كلها روحاً إنسانية تشع الدفء وتفيض بالحياة .

ولا أستطيع أن أدعى أن هذه الحياة الإنسانية هى التى حببت إلينا الاجتماع فى أمسيات الصيف بأحد أركان هذه الحديقة ، تحت ظلال إحدى أشجارها الكبيرة الورقة . . فواجب الأمانة ، ومقتضيات الذمة والصراحة ، تحتم علىّ أن أذكر أن جلستنا كانت بعيدة عن كل هذه المعانى . . وأننا ، على العكس ، ربما كنا مشغولين عنها بنقيضها!!

كنا خمسة من الشيوخ الذين تقدمت بهم السنون، وذهبت خطواتهم

فى موكب الحياة إلى مشارف النهاية ، بعد أن وصل مجموع أعمارنا إلى ما يناهز الثلثمائة عام أو تزيد . . ومع ذلك فقد كنا عندما نختلى بأنفسنا ، فى ركننا المعتاد ، نحاول نسيان هذه الحقيقة . ويدعونا التشبث بالحياة إلى نكرانها . كما نتخلى عن وقار الشيخوخة الذى نحتفظ به عادة أمام الناس ، ونخرج عن التزمت والجد والصلابة ، التى نلزم بها أنفسنا فى حياتنا اليومية ، عندما نمشى من غير رقابة ولا رقيب . . . ولعل هذا القيد الذى نضيق به طول النهار ، هو نفسه الذى كان يدفعنا إلى الثورة عليه فى أول الليل ، فنبالغ فى التحرر فى أحاديثنا ونخرج بها إلى مزايدات مكشوفة نتناول فيها مغامرات الشباب ، وهى ما بقى لنا من رصيد نضيف إليه بغير رحمة ولا عطف ، ولا وازع من ضمير ، ما يخلو لنا ، ويرضى شهوتنا البالية ، من تعليقات ساقرة وساخرة ، على روّاد الفندق ونزلائه ، خصوصاً السيدات والفتيات الجميلات ، والتطلع إليهن فى نهم المحروم الذى فاته الأوان . . غافلين عن أننا فى هذا العبث والتصابى ، كنا أشد نكراً من قريناتنا المسنات وأننا أولى منهن بما يوجّه عادة إلى عجائز النسوة من اتهام بحب الثرثرة الفارغة وولع بالغيبة والنميمة ، والخوض فى سير الناس ...!!

ومهما يكن من أمر ندوتنا ، وعلى الرغم من أنها ، باستدامتها ، قد أصبحت من معالم الحديقة ، فإنه ما من شك فى أنها لم تكن تعنى روّاد الفندق ونزلائه ، فى قليل أو كثير . . ولكن ما من شك

أيضاً فى أن الحال لم يكن كذلك مع موظفى الفندق وخدمه ، الذين أصبحوا بحكم العادة ، أصدقاء لنا ، يحرصون على إكرامنا ، والعمل على راحتنا ، بل الاشتراك معنا أحياناً فيما نذهب إليه من تعليقات جريئة . ولكن بعبارات غير عباراتنا ، عبارات مهذبة فيها من التحفظ والتزام الحدود ما لا يسمح برفع الكلفة ، بيننا وبينهم . . . وإن كان هذا التحفظ لم يمنعهم من أن يكونوا أهم مصادر معلوماتنا عن الفندق ونزلائه ، مادمنا نستمد منهم الأخبار والمواد الطريفة التى تغذى عبثنا ، وما نحن سادرون فيه من مجون . . !

وكان من عادتنا ، وفى ساعة محددة لاتتغير بعد الغروب من كل يوم ، أن تتعلق أنظارنا ، ونحن فى جلستنا بكلبة صغيرة من النوع المسمى « كانيش » ، تقبل على الجمع ، سريعة الخطو ، وئيدة القفز ، كما لو كانت تؤدى عرضاً من فنون الرقص الرفيع . . تؤديه لنفسها — غير عابئة بغيرها من المشاهدين — فى خطوات لم تكن خالية من الرقة والرشاقة ، مع الاتسام بالخيلاء المقرونة بالكثير من الدلال والثقة بالنفس ، فقد كانت الكلبة تعلم أنها جميلة ، وأنها ربيبة النعمة ، وأن من حقها لذلك أن تكون مدللة وراضية عن نفسها . . .

وكنا نصيح دائماً فى صوت واحد عندما تهل طلعة الكلبة علينا :

— صاحبة العصمة :

ونحن نتطلع ، فى نفس الوقت من ورائها إلى سيدة جليلة ، كلل

الشيب رأسها ، وهى تتقدم منصوبة القامة نحو مائدة ظلت سنوات طويلة محجوزة لها .

كانت السيدة تناهز السبعين من عمرها ، تبدو عليها أمارات جمال لم تأت عليه السنون ، وإن كانت قد صاغته صياغة جديدة . . حولته إلى مهابة وجلال يلفتان النظر ، ويبعثان على التوقير والاحترام . كنا نعرف أنها أرملة موظف كبير . شغل فى وقت من الأوقات منصباً كبيراً أتاح له أن يجمع بين مرتبه ، وبين نظارة أوقاف كثيرة أوقفت على وظيفته . وأنه قضى نحبه بعد أن ترك لها ثروة . كانت فى تقديرنا ، لابد أن تكون طائلة ! . . مادامت ألسنتنا فى سلاطتها ، قد شاءت أن تربط بين الوظيفة وبين ما رصد عليها من أوقاف ، من شأنها أن تدرّ على صاحبها فيما لو كانت الشطارة من صفاته . الكثير من خيرات الله . وهكذا كان حكمنا على زوج السيدة ، ونحن نترحم عليه ، ونذكر محاسنه ، دون أن تكون لنا به سابق معرفة !

وبطبيعة الحال كانت السيدة مادة طريفة من مواد حديثنا . . . عن شطارة زوجها . . وعن ثرائها . . وعن عاداتها التى لاتتغير ، من الحضور سنوياً لقضاء الصيف من كل عام فى هذا الفندق ، وفى نفس الحجرة الكبيرة حتى ظلت منذ سنوات طويلة محجوزة لها ولزوجها الراحل ، ولعلها ، وفاءً منها لذكراه العاطرة ، قد حرصت على أن تحتفظ بها بعد وفاته لنفسها ، ولم تشأ تغييرها بغيرها عندما أصبحت

فى الحياة بمفردها .

وكان من عاداتها ، التى نتندر بها ، أنها كانت تأتى دائماً إلى الحديقة مسبوقة بكلبتها . . كما لو كانت الكلبة طليعة لموكب أمير ، أو حاجباً من حجاب السلطان . . ! ! فكنا نعلم عندما تهلّ طلعة الكلبة ، أن صاحبتها ، من ورائها ، فى الطريق . . ! وعندئذ لانملك إلا أن نصيح فى صوت واحد ، ومن غير تفكير ، كأنما نعلن نيابة عن الكلبة :

— صاحبة العصمة !

ومن كثرة ما تردد هذا المشهد ، وتردد معه هذا النداء ، اختلط الأمر علينا ، فلم نعد نعرف أى الاثنتين « صاحبة العصمة » ، هل هى الكلبة الصغيرة . . أم هى صاحبتها ؟ ! !

* * *

وحضر الساقى ليسألنا عمّا نطلب . وكأنما تذكر أن عليه أن يقدم لنا تقريره اليومى عن أخبار الفندق . فأومأ بإشارة وجّهت أنظارنا إلى شابين ، فتاة ممشوقة القد ، غضّة الإهاب ، فى زهرة العمر وتفتحه ، وإلى جانبها فتى فى ريعان الشباب وعنفوانه ، يحتلان على مقربة منا مائدة فاضت عليها سعادة الاثنين حتى بدت ، بابتساماتهما الحلوة ، ضاحكة مشرقة .

وقال الساقى ، وهو يبتسم ابتسامة لاتخلو من معنى :

— عروسان فى شهر العسل ، عقبى لأولادكم . . !

وكان حرياً بنا ، ونحن نرى العروسين ونسمع إشارة الساقى إلى أولادنا ، أن نسعد بسعادة الشابين ، وأن نرى فيهما أولاداً وأحفاداً لنا ، نشعر نحوهم بالعطف والحنان ، بدلاً من أن يثير وجودهما بيننا تعليقات لاذعة ، لا داعى للخوض فى تفاصيلها ؛ وإن كنا لم ننس أن نقحم بأنفسنا فيها ، عائدين إلى ذكر أيامنا الخوالى ، فى باكورة زواجنا ، وكيف أننا لم نكن كشباب اليوم ، ننعم بما يسمى شهر العسل ، و بقضائه بعيداً عن الأنظار ، فى عزلة عن الناس ، تتيح للعروسين فى انفرادهما بنفسيهما ، ما يشاءان من عربدة مشروعة . . . وشاءت المناسبة أن نجول ونصول فى تفاصيل هذه العربدة ، وأن ندخل فى دقائقها من غير تحفظ ، وفى صراحة لا يقدر عليها أحد غير المجربين من الشيوخ إذا خلا بعضهم إلى بعض .

إلى أن أعادنا واحد منا إلى العروسين ، بقوله ضاحكاً :

ـ أظنهما بعد ذلك فى حاجة إلى غرفة منعزلة ؟

وهنا قال الساقى :

ـ لقد أدت لهما صاحبة العصمة هذه الخدمة !

واستفهم أحدنا أو كلنا معاً :

ـ كيف ؟

ـ لقد كانت جميع الغرف بالفندق مشغولة ، اللهم إلا غرفة واحدة صغيرة و بدون حمام . . بالطابق العلوى .

واستطرد ضاحكاً . .

ـ ولا يعيب الغرفة أنها صغيرة . . ولكنها كانت بدون حمام . .

وهذا بطبيعة الحال لا يناسب ظروفهما ، ولذلك تنازلت لهما السيدة عن غرفتها ، عندما علمت بأمرهما . . وكانت بذلك سعيدة غاية السعادة ، كما لو كانت قد حلّت إشكالاً كبيراً يهمها . . .

ولكم كانت دهشتنا كبيرة إذ غيرت السيدة من أجل العروسين عادتها القديمة وآثرتهما على نفسها ، مضحية بغرفتها الفسيحة التى تعودت عليها من سنوات طويلة ، وقبلت غرفة لا تليق بمكانتها ، غرفة تنقصها كل الراحة . . وقدرنا لها هذا الصنيع كما قدرنا فيها السيدة الكريمة ، ذات القلب الكبير . .

ولكننا مع ذلك لم نتخلص مما فى نفوس الشيوخ من أنانية ، عبّر عنها أحدنا بقوله :

ـ ربما كانت على سابق معرفة بهما .

وقال آخر :

ـ أو على الأقل بواحد منهما !

وأجاب الساقى مؤكداً :

ـ أبداً . إنها لا تعرف أحداً منهما . . ولكنها سيدة كريمة . . قلبها كبير !

وتركنا منصرفاً إلى عمله . . .

. . .

وانقضت أمسية . وجاءت أمسية أخرى دون أن تطلع علينا « صاحبة العصمة » مسبوقة كالعادة بكآبتها . . !

وكانت هذه الغيبة ، هى الأخرى ، مثار دهشتنا . خصوصاً وقد شعرنا أن جو الفندق قد أصبح غامضاً تكتنفه الغيوم . وأن وجوماً يعلو وجوه الموظفين والخدم . ولا ندرى له سبباً !

وكان رئيس الخدم على مقربة منا . فسألناه عن « صاحبة العصمة » وغيابها . وشعرنا بأنه كان حزيناً . . وأنه يريد أن يتكلم . . أن يفضفض عن نفسه .

وتقدم الرجل إلينا . وهو يحاول إخفاء حزنه . ويتردد فى الإجابة المباشرة على سؤالنا :

— دنيا فانية . . لاخير فيها !

وإذا بنا جميعاً . وقد أخذتنا المفاجأة . نقذف إليه بأسئلتنا . كما لوكان الرجل أمامنا حارساً من حراس المرمى تنهال القذائف على مرماه .

— خير . . . ماذا حدث ؟ !

فأجاب وهو يمصمص بلسانه :

— البقية فى حياتكم . . !

وانطلقنا نسدد قذائفنا من جديد :

— لا ياشيخ !

— لا حول ولا قوة إلاّ بالله !

— سبحان من له الدوام !

— الله يرحمها . .

— متى حصلت الوفاة ؟

وكانت إجابة حزينة مقتضبة :

— وجدناها ميتة فى غرفتها . . هذا الصباح . . الله يرحمها . .

وبدأنا نقول فى ثرثرة لاتخلو من تضارب وسذاجة :

— غرفة نحس !

— يا إخوانا ، أينما تكونوا يدرككم الموت .

— لقد كتب عليها أن تموت فى هذه الحجرة !

— ما كان يجب أن تغيّر غرفتها .

— كان الأليق أن تموت فيها !

ونظر أحدنا إلى العروسين . وهما عن الجمع لاهيان . وقال :

— لماذا تبرعت لهما بغرفتها ؟ !

وهنا خرج رئيس الخدم عن صمته وقال له :

— من قال إنها تبرعت لهما بغرفتها ؟ !

— لقد سمعنا ذلك .

— هذا غير صحيح . . إنها هى التى أصرت على ترك غرفتها !

— لماذا ؟ !

ولقد كانت حيرتنا عظيمة عندما قال :

— لأنها عجزت شهرين عن دفع الأجرة !

واستطرد يقول :

— ومع ذلك فإن الإدارة كانت كريمة معها . . قدرت ظروفها . . فصبرت عليها ولم تلح فى مطالبتها . . ولكنها هى التى أصرت ، توفيراً للنفقات ، على أن تنتقل إلى الغرفة الصغيرة.

وعقد العجب ألسنتنا لحظة قصيرة ، إلى أن سأله أحدنا :

— إذن كانت فقيرة ؟ !

— يبدو ذلك .

— ولكن مظاهر النعمة كانت بادية عليها !

— كانت هذه المظاهر من بقايا الماضى . . ولم تعد اليوم تخدع أحداً . . خصوصاً وقد انكشفت الحقيقة .

وهنا بدأت الشفقة تعرف طريقها إلى قلوبنا . . فقال أحدنا ، وهو من قدماء رجال التربية والتعليم :

— لقد ظلمناها وظلمنا زوجها . .

— كيف ؟

— القرائن تدل على أن الرجل كان نزيهاً . . لم يكن على تلك الشطارة التى تصورناها فيه . . .

وغلبت المهنة على زميل آخر كان من المعروفين بالذكاء والمهارة وتضييق الخناق على المتهمين والشهود فى استجوابهم والتحقيق معهم ، عندما كان فى ماضى حياته وكيلا للنائب العام . . فاعترض قائلا :

— هذا مجرد احتمال . وهناك احتمال آخر ، لايقل عنه أهمية .

— وما هو ؟ !

— أن تكون « صاحبة العصمة » فى حرصها على الاحتفاظ بمستواها ، قد بالغت فى الإسراف والتبذير . . تبذير ما جمعه زوجها ، بشكل أو بآخر . .

فاحتد صاحبه قائلا :

— إنها على كل حال سيدة تستحق التقدير والإعجاب . . لقد جاهدت فى الاحتفاظ بمستواها . . حتى ماتت ، وكان الموت رحيماً بها !

والظاهر أنه كان قد بدأ يضيق بقسوة صاحبه ، وبإصراره على التشكيك والاتهام ، فقال وهو ينظر إليه نظرات لاتخلو من حدة :

— نعم ، كان الموت بها رحيماً . . أرحم بها وبزوجها من بعض الناس !

على أن الحديث ما لبث أن تغيّر عندما استفهم أحدنا :

— ولكن ما هو سبب الوفاة ؟ ! هل قتلها الحزن . . أم أصيبت بسكتة قلبية ؟ !

ورد رئيس الخدم متجهماً :

– ولماذا لا تقول إن الجوع قد قتلها ؟ ! فقد ثبت أنها لم تتناول طعاماً منذ يومين .. أو على الأقل منذ اعتكافها بغرفتها ..

وعندئذ ، ولا أدرى لماذا ، قفزت الكلبة الصغيرة فجأة إلى خاطرى فسألته متلهفاً وقلقاً :

– والكلبة الصغيرة ؟

– لقد كان منظرها يفتت الأكباد عندما وجدناها بجانب سيدتها الميتة . كانت تعوى عواء خافتاً . يكاد يكون مكتوماً . ولا أبالغ . إذا قلت : إنى رأيت الدموع فى عينيها .. كان عواؤها أشد على النفس ألماً من عويل الآدميين وبكائهم . وكان حزنها يائساً مروّعاً .

– وأين هى الآن ؟

– لقد احتفظت بها الإدارة ، ضمن ما احتفظت به من مقتنيات صاحبتها ، انتظاراً لسداد ما عليها من ديون .

وسألناه جميعاً :

– وكيف حالها الآن ؟ !

– لقد عافت نفسها الطعام ، وفشلت جميع محاولات الإغراء التى بذلت لحملها على أن تصيب قليلا منه ، حتى ليخشى الآن على حياتها.

وصاح واحد منا مؤكداً :

– أعتقد أنها لن تعيش بعد صاحبتها .. ولعل هذا يكون من حظها.

وضحك رئيس الخدم فى حزن ، وهو يقول :

– أو من سوء حظ الإدارة .. فهى كلبة غالية الثمن كما تعرفون !

إنسان وجد نفسه

إنسان وجد نفسه

لم يكن له عمل يرتزق منه . .

كما لم يكن يمتلك شيئاً يقيه الحاجة وذل السؤال . .

كان عاطلا ، لا مورد له . .

وكان مفلساً ، لا يملك قوت يومه . .

ومع ذلك فقد كان يعيش عيشة الأمراء . . .

كان المال يتدفق من أمامه . ويجرى تحت بصره ، سهلاً هيناً ، فى إسراف ، ما بعده إسراف . وفى بذخ وتبذير ، يخرجان عن المألوف ، ويفوقان حدود التصور والخيال . . ينفق فى لذات الحياة . وفى ملاهيها ، ومباهجها ، ومتعها ، مشروعة وغير مشروعة ، بغير تردد أو حساب . .

كان يراه ، ويستمتع به استمتاعاً كاملاً . . وإن كان لا يمتلك منه شيئاً . فقد كانت حياته تواكب حياة الأثرياء من أولاد الذوات ، الذين كان يعتبر نفسه ، ويعتبره الناس ، ظلاً ملازماً لهم . لا يفارقهم فى عبثهم ولهوهم ، ولا تشبع نفسه من مشاركتهم فى الإقبال على متاع الدنيا ومجونها . حتى لقد أصبح أسير عاداتهم . يحرص على صحبتهم

أينما كانوا ، وكيفما كانوا . يصيب ما يشتهى من طعامهم ، ويرتدى نفس أزيائهم ، جودةً فى النوع ، وإتقاناً فى الصنع ، على أحدث صيحات الأناقة والوجاهة التى يحرصون عليها ، ويزهون بها ، ولا يبخلون بإشراكه معهم فيها ! !

وقد كانت نفسه تطرب أشد الطرب ، وهو يرى أنه قد سلك عند من لا يعرفه مسلك من وقع على شاكلتهم من الأثرياء والعظماء . ويجد التعزية وراحة القلب ، وهم يضعونه فى مصاف من يلتصق بهم من علية القوم وسراته ، ويسبغون عليه من الاحترام ما يرضى كبرياءه ، ويحيى تلك الكرامة التى دفنها البؤس بين جوانحه . . ويتمنى لها أن تبعث من جديد .

أما الذين يعرفونه ، فلم يحملوا أمره محمل الجد ، منذ أن كانوا على علم بحقيقة حاله . وبمقدار ما هو عليه من البؤس . . ويعجبون لداء العظمة ، وحب الراحة ، ولين العيش ، وقد تغلغل فى أعماقه ، واستشرى فى كيانه ، فأصبح له عبداً ، مدمناً عليه . لا يستطيع العدول عنه ، ولا يرغب فى هذا العدول حتى لو استطاعه .

فكانت الشفقة تأخذهم عليه أحياناً ، فيرثون له ، وهم يرونه مكبلاً بأغلال تلك العبودية التى أخضع لها نفسه راضياً مختاراً . وأحياناً أخرى كانوا يسخرون منه ، وهم يرونه فى حرصه على ما هو فيه ، قد اشتدت به لوثة التمسك بمصاحبة أهل الجاه والثراء ، والإصرار المريض على أن

يكون دائماً فى ركابهم. حتى لقد ذهب بعضهم فى التندر عليه إلى زعم أنه ذهب ذات مرة إلى مقهى « جران تريانون » بالإسكندرية ، فلم يجد به أحداً من السادة العظماء الذين يلتمس عادة الجلوس على موائدهم . فما كان منه إلا أن سحب كرسياً من المقهى ، وذهب به إلى الحديقة المقابلة ، ساعياً إلى تمثال الزعيم سعد زغلول ليجلس إلى جانبه . . ! !

أما هو فقد كان صادقاً مع نفسه . يراها على حقيقتها ، مثالاً مؤلماً للعوز ، مُمْعِناً فى الفقر والحاجة إلى أبعد حدود الإملاق والعدم . . كان يعلم أنه عالة على من يلتصق بهم من الوجهاء والأثرياء ، يعيش من فضلاتهم ونفاياتهم ، ويحيا على أبوابهم ، وتحت أقدامهم . ولا يشك فى أن التودد إليهم ، والتمسح بهم ، وبذل ماء الوجه فى استرضائهم وكسب عطفهم ، هو رأس ماله الوحيد . . الذى يتعيّن أن يحافظ عليه ، وينمّيه بالخضوع والذل والاستسلام ، مادام قد ارتضى حياة من صنع غيره . . ! !

ومن الإنصاف أن نقول إنه كان مثالياً فى وفائه وإخلاصه لأصدقائه . . . وهم كثر . . . موزعين بين السادة والأثرياء ، والعظماء من ذوى الألقاب والرتب الكبيرة ، الذين مدّوا له أسباب الرزق ، ومهدوا له سبل الحياة الناعمة ، وبين البسطاء من عامة الناس ، الذين شاءت ظروف نشأته ، وحياته المضطربة ، أن تعقد أواصر الصداقة بينه وبينهم . .

وهكذا كانت نفسه موزعة بين العواطف المتضاربة التى يكنها لأصدقاء الضرورة والمصلحة ، وتلك التى يحفظها لأصدقاء جمعت بينه وبينهم علاقات مبرأة عن الغرض والمادة . ولكنه كان فى الحالتين إنساناً رقيقاً مهذباً ، لا يعرف الحقد والحسد طريقاً إلى قلبه ، الذى كان يفيض بالولاء لهم جميعاً ، على اختلاف طبقاتهم ودرجاتهم .

كان اتصاله بالطبقة العليا هو مصدر رزقه الوحيد . وقد نمّت فيه هذه الطبقة حب الحياة السهلة ، والاستمتاع بمباهجها . ومكنته بعطفها وسخائها من الاشتراك فيما يستمتع به أفرادها من رخاء ، ومقاسمتهم ما ينعمون به من بذخ . فحفظ لها ولهم هذا الجميل . وحرص فيما جبل عليه من أمانة ووفاء على أن يتغافل عما فى هذه الطبقة من مثالب وعيوب ، وأن لا يذكر لها إلا الجانب الطيب ، الذى يحلو له أن يشيد به . أمّا جوانب السوء ، فقد كان يراها ، ويحرص على التستر عليها ، وعدم تسربها عن طريقه ، مكتفياً فى أحاديثه عنهم بالإشارة إلى ما كشف من فضائلهم . وإذا كان هذا السلوك من جانبه ضرورة تحتمها دواعى المصلحة ، فإنه كان فى الواقع ، إلى جانب ذلك ، يترجم عما فى خلقه وطبعه من الوفاء وعرفان الجميل ، كما كان يتمشى مع فلسفته فى الحياة من أن الإنسان ليس خيراً كله . . . وليس شراً كله . . وأن العصمة لله وحده !

أما علاقته بغير هؤلاء من أصدقاء ، فقد كانت علاقة أخوة

يستطيع أن يقابلهم فيها مقابلة الند للند . وإن كانت لا تخلو أحياناً من تعريض به ، يغتفره لهم ، ولا يغضب منه ، بل لا يجد غضاضة فى أن يضحك معهم ، ويجاريهم فيه ، وهو يعلم صدق نواياهم ، وخالص ودهم ومحبتهم ، ومقدار ما يضمرون له من تقدير . فقد كان لا يدخر وسعاً فى معاونتهم ومساعدتهم ، كما كانوا بدورهم لا يتحرجون من الالتجاء إلى وساطته عند العظماء من أصدقائه فيما قد يضطرون إليه من أمور . وقد كان فى ذلك حفيّاً بهم ، مسارعاً إلى خدمتهم ، سعيداً بها كل السعادة . كما لو كان يرى فيها مظهراً من مظاهر القدرة ، يرد إليه اعتباره . ذلك الاعتبار الذى كان يحس بانتقاصه فى علاقات التبعية والعجز التى كانت تربطه بالأقوياء من أصدقاء المصلحة !

* * *

وجاءت الحرب العالمية الثانية . . . واختفى صاحبنا . .

تواترت الأنباء بأنه قد هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية . . ثم عادت فتأكدت عند ما رأيناه يعود إلينا ، فى أثناء تلك الحرب ، وهو فى زى ضابط من الضباط الأمريكيين . . . وعادت السخرية به من جديد . . . وشملت الجيش الأمريكى معه ، الذى يضم ضباطاً من هذا النوع العجيب . . .

ولكن هذه السخرية ما لبثت أن انتهت بانتهاء إقامته التى لم تطل بيننا . فقد كانت إقامة عابرة ، ذهب بعدها إلى مختلف بلاد الشرق

الأوسط مع رؤسائه من قادة الجيش الذين كانوا يستعينون به فى أعمال الترجمة بعد أن اتضحت لهم كفايته فى كثير من اللغات ، خصوصاً اللغة العربية التى كانوا يحتاجون إلى التفاهم بها فى المنطقة .

ومرت سنوات ، وضعت الحرب فيها أوزارها ، وحل السلام بالعالم ، ونحن لا نسمع عنه شيئاً . إلى أن شاءت ظروف الحياة ومصادفاتها أن ألتقى به يوماً فى مدينة جنيف بسويسرا . . وأن أرى فيه رجلاً جديداً . كان على العهد به من الوفاء ، ورقة الشمائل ، ولكنى مع ذلك ، شعرت بأنه لم يعد نفس الرجل .

وكان لا بد أن يتطرق الحديث بيننا إلى مغامراته ، فسألته :

— متى ستعود إلينا ؟

فقال مبتسماً :

— فى القريب بإذن الله . . ربما عدت إليكم زائراً !

— زائراً فقط . . ! ألا تنوى إذن الإقامة بيننا . . العودة إلى وطنك ؟

فأجاب يذكرنى بحقيقة لم أتذكرها ، أو ربما صعب علىّ أن أتذكرها :

— لقد أصبحت أمريكا وطنى . . ! هل نسيت أنى اكتسبت جنسيتها ؟

وشرد ذهنه فترة قصيرة ، استمر بعدها يقول :

— لقد دخلت هذه البلاد من أوسع أبوابها . . باب الجيش . . وتخطيت عن طريقه كل الإجراءات اللازمة لاكتساب الجنسية الأمريكية ، فكان مجرد أدائى للخدمة العسكرية كفيلاً بأن يمنحنى الحق فى هذه الجنسية وفيما يترتب عليها من حقوق وواجبات . .

وهنا قلت له فى شىء من العتب :

— وهل نسيت مصر فى غمرة فرحك باكتساب تلك الحقوق ؟

— أبداً . . لا يمكن لمن عاش فى مصر أن ينساها . . ولكنى كنت ، وما أزال ، مصمماً على نسيان حياتى الماضية فيها .

وعاد يقول مؤكداً :

— مهما كانت التضحية !

فقلت معقباً :

— وأصدقاؤك فيها . . هل كنت تكرههم إلى هذا الحد ؟!

— معاذ الله أن أكرههم . . ولكنى كنت أكره وضعى بينهم !

— كيف ؟

— لقد كان وضعاً غريباً . فقدت فيه إنسانيتى . كنت مع الأقوياء كالبعرة أو الزبلة عندما تلصق بمؤخرة البعير . . . هو عاجز بقصر ذيله عن إسقاطها إلى الأرض حيث يجب أن تكون . . والناس من حوله يشمئزون من قذارتها ، ويأنفون من أن يمدوا أيديهم النظيفة لإسقاطها عنه . . .

فقاطعته معترضاً فى أسف :

ألست قاسياً غاية القسوة فى حكمك على نفسك ؟!

— أبداً . . إنى أقول الحقيقة والحقيقة مهما كانت مُرّة لا تغضب العقلاء !

وضحك معقباً :

— ويشهد الله كم حاولت أن أكون واحداً منهم . . وهذه الحقيقة كنت أراها ماثلة فيما حولى . . كنت سكرتيراً على المشاع لجماعة من التافهين . . . أؤدى لهم ما يعجزون عن أدائه من أعمال ، نظير صداقتهم ، وفى مقابل الانتفاع بما تجره تلك الصداقة من غنائم . . ولذلك كنت مقيداً حيالهم بأصفادٍ من حديد . . كنت عبداً لاحرية له . . لا أستطيع إبداء رأيى فيهم . . كما لا أستطيع مناقشة رأيهم فى شخصى الضعيف ، الذى كان دائماً ، بالنسبة لهم ، شخص التابع المسكين !

أما أصدقائى المخلصين من أمثالك ، فقد كنت أشعر ، وأنا أبادلهم المحبة والصفاء ، أنهم يعتبرونني من حثالات المجتمع . . ! أو إذا شئت الرّفق ، من فضلاته . . !

والتفت إلى ضاحكاً :

— أتذكر عند ما أطلقتم علىّ كلمة « الزعنفة » كناية عن القصر والتفاهة ؟ ولم تكتفوا بها . . بل زدتم فى مسخها . .

وابتسم وهو يقول فى حزن :

— ونسيتم ما أنا عليه من طول القامة ، فأطلقتم علىّ لقب « الزعنوف » لعله يكون أقرب إلى تصوير ما انتهى إليه حالى من قصر الباع وقصور الهمة ! !

وحاولت أن أراجعه فيما يقول ، ولكنه استمر فى حديثه ، بعد أن أشار إلىّ بعدم المقاطعة :

— صدقنى لم أكن فى ذلك غاضباً منكم . فقد كانت تلك هى حقيقتى . . زعنوفاً من الزعانف . . ولكنى ، فى قرارة نفسى ، كنت ثائراً على تلك الحقيقة ، عاقداً العزم على تغييرها ، تغييراً عادياً لا مبالغة فيه . لم أكن أطمع فى أن أخلق من الزعنوف عملاقاً . . ولكن رجلاً عادياً كغيره من خلق الله . وكنت أنتهز الفرصة لذلك ، وأتعجلها . . وأنا أرى بلدى يضيق بى . . وأنا أضيق به . . بعد أن لم تعد لى فيه كرامة . . فقررت الهجرة . .

ولم أتمالك من أن ألقى اللوم فى ذلك عليه ، وأنا أقول له :

— ولكنك أنت الذى ارتضيت لنفسك هذا الوضع . . أنت المسئول عنه !

ورد فى هدوء !

— ولذلك كانت ثورتى مقصورة على نفسى . . لم تتعدّها إلى غيرى من الناس . . وإنى أحمد الله على أنى نجحت فى الاحتفاظ بعلاقاتى على

ما وددت لها من البعد عن الحقد والكراهية . .

وكان لا بد ، وقد انتهى من تصوير ماضيه على تلك الصورة الأليمة التى انفجرت أمامى كما ينفجر البركان بعد فترة من الخمود ليقذف بما فى جوفه من حمم ولهب ، أن أسأله عن حاضره ، وهل هو سعيد به . .

فقلت له :

— وهل وجدت فى هجرتك ما كنت تنشد من راحة البال ؟ !

فأجاب مصححاً :

— لعلك تقصد ما كنت أنشد من رد اعتبار !

واستطرد فى حديثه يقول :

— أنت تعرف أن ممارستى للحياة كانت سيئة . . فقد كنت أعتمد فى معيشتى على غيرى . كما كنت لا أحسن عملا . . على الأقل عملاً مفيداً . وإذا بى أجد نفسى ، فجأة ، ومن اليوم الأول لهجرتى . مسئولا عن نفسى ، وأن لا بد لى من الاعتماد عليها ، وعليها وحدها ، إذا ما أردت أن أعيش ! ولعل هذا هو أشق ما واجهنى فى بدء حياتى الجديدة . ولكنى مع ذلك اعتبرت هذه المشاق ، على قسوتها ، ثمناً عادلاً يتعين على أن أدفعه فى نظير المتع المجانية التى حصلت عليها فى حياتى الماضية ، وتولى الغير عنى دفع ثمنها . . فأقبلت على الحياة القاسية ، مزوداً بتلك الفلسفة ، أستمد منها العزم والقوة . . وأنا غير

يائس . . حتى تداركتنى عناية الله بإعلان فى إحدى الصحف عن وظيفة لم أكن قد سمعت من قبل عنها . . وظيفة غير معروفة عندنا فى مصر . . ولكنها شائعة فى أمريكا . . وفى محلاتها التجارية الكبرى . . وظيفة فاتن السيدات . . !

فقلت فى استغراب وأنا أغالب الضحك :

— فاتن السيدات . . ؟ ! لعلك تحاول أن تستعمل تعبيراً خفيفاً عن حقيقة عمل غير كريم . . تخجل من الاعتراف به . . .

فرد ضاحكاً ، وقد فهم ما ذهبت إليه من إشارة :

— وهل تظن أنى وصلت إلى هذا الدرك ؟ ! . . « فاتن السيدات » ليس كما تبادر إلى ذهنك . . قواداً للنساء . . إنها وظيفة محترمة ، يسمونها بالإنجليزية « Ladies' Charmer » . . ومهمتها قريبة من مهمة رجال التشريفات والمراسم . . أو العلاقات العامة . . ولكن اختصاص شاغلها يقتصر على استقبال السيدات من عميلات المحل ، والترحيب بهن ، وإرشادهن فى كياسة ولباقة تفتنهن ، وتخلب ألبابهن ، إلى الأقسام التى يجدن فيها ما يرغبن فى شرائه . وهى وظيفة موجودة فى كثير من المحلات الكبرى بنيويورك وغيرها من المدن الأمريكية الأخرى . ومن محاسن الصدف أن المؤهلات التى حصلت عليها بالخبرة فى حياتى الماضية ، مضافاً إليها إلمامى بأكثر من لغة أجنبية . هى التى زكتنى فى الحصول على هذا المركز العجيب . . « فاتن السيدات » . .

وهو مركز يجب أن تتوفر فى شاغله كل هذه الصفات . وقد اضطرتنى ظروف الحال إلى قبول هذا العمل . . وإن كنت فى الحقيقة كارهاً له ، غير راض عنه . . فقد كان لا يبعدنى كثيراً عن الماضى الذى أسعى فى الهرب منه . كنت فى مصر زعنوفاً بين الرجال . . وهأنذا فى حياتى الجديدة لا أعدو أن أكون ذيلاً للسيدات . . والوضع كما ترى لا يختلف فى حاضره عما كان عليه فى ماضيه . . ولكنى اعتبرته تحت ضغط الظروف خطوة تقرب ما بينى وبين ما أنشد، ما دام عملا شريفاً أقتات منه . .

وهكذا غدوت صديقاً لعدد كبير من السيدات . . ولعلك تعرف أن نفوذ النساء فى أمريكا يفوق نفوذ الرجال . وتصادف أن كان بين معارفى منهن ، سيدة كريمة قدمتنى إلى زوجها . وكان من كبار قادة الجيش . وتوطدت صلات الصداقة والمودة بينى وبين العائلة . واكتشف الرجل أنى أجيد أكثر من لغة ، وأن فى طبعى سهولة وقدرة على كسب الأصدقاء . وكان الجيش فى أثناء الحرب فى حاجة إلى مترجمين ، فألحقنى فيه بوظيفة ضابط اتصال يقوم بأعمال الترجمة . وبذلك بدأت حياتى تغييرها الكبير . . أصبحت بأداء الخدمة العسكرية مواطناً أمريكياً . . وانتزعتنى حياة الجيش مما كنت قد تعودته من حياة الترف ، وزجت بى فى ميدان كان على أن أتمرس فيه بحياة جديدة . .

وانتهت الحرب . وسرحت من الجيش . ولكنى خرجت من التجربة

إنساناً جديداً يستطيع أن يعتمد على نفسه . وانفسح أمامى مجال العمل. وكنت راغباً فيه ، مهيأ له . فنجحت . وأصبحت ، كما ترى ، من رجال الأعمال . أعيش بين أمريكا وسويسرا، سعياً وراء الرزق الحلال. ووصل التغيير الكبير إلى نهايته . فلم أعد عالة ، ولا زعنوفاً بين الرجال، ولا فاتناً للسيدات . أصبحت متحرراً من قيود العوز والحاجة . أقول ما أنا مقتنع به . وأعارض ما لا أجد الحق والعدل فيه . وأرفض ما يأباه ضميرى ، دون خوف من أحد ، أو مجاملة لأحد . بدأت أشعر أنى خرجت إلى الدنيا من جديد . . إنساناً عزيزاً على نفسه ، كريماً عند غيره ، قادراً على الاحتفاظ بكرامته وعزته .

ونظر إلى متسائلا :

— أتدرى متى تحقق هذا البعث الجديد ؟

ولم يدع لى فرصة للإجابة ، فاستمر يقول :

— عندما بدأت أشعر بقدرتى على الكسب . . الكسب بعرق لا بعرق غيرى !

واستطرد :

— وعندئذ . . وعندئذ فقط . . وجدت نفسى على حقيقتها . . واستطعت أن أوليها ما كنت أريده لها من احترام .

قاطرة العجزة ..

قاطرة العجزة

انقطعت تأملات الأستاذ « أنور عبد الحميد » عندما دق جرس معالى الوزير يستدعيه إليه . .

وفى الحقيقة لم يكن الأستاذ أنور سعيداً فى تأملاته . فقد كان مبالغاً فى عدم رضائه عن نفسه ، وفى تبرمه بعمله الجديد . وإن كان أمثاله من الشباب يبذلون غاية جهدهم للفوز بهذا العمل ، ويتطلعون إليه تطلعهم للحصول على مفاتيح الجنة . . . السكرتير الخاص لمعالى الوزير . . .

وكان الأستاذ « أنور » يعجب فى تأملاته من تصاريف الأقدار معه ، ومن تلك الظروف والمفاجآت التى تعبث بحياته ، كأنما تصنعها له ، وتصوغها وفق أمانيه ورغباته ، دون تدخل من جانبه . وكان يراها فى عبثها بارة على الدوام به ، سخية فيما تمنحه وتعطيه ، مستجيبة لرغباته وآماله ، والوصول أحياناً فى تلك الاستجابة إلى أبعد مما كان يرجو وينتظر . ولذلك تركها فى عبثها تفعل به ما تشاء ، ما دامت تمنحه كل هذا البذل والسخاء ، الذى لم يكن يستطيع أن يحصل عليه ، فيما لو أراده ، وسعى إليه بنفسه . حتى لقد قام فى خلده أن

العناية الإلهية تؤازره ، وتسدد خطواته ، وتسبقه إلى تحقيق مقاصده وغاياته ، دون أن تطلب إليه أن يبذل قليلا أو كثيراً مما يبذل أقرانه عادةً من جهد وعناء فى هذا السبيل . فأصبح يعتقد أن فيه شيئاً لله .. وأنه من الواصلين . . . على الرغم من أنه ، على إيمانه ، لم يكن يؤدى فروض دينه على ما يشيع هذا الإيمان ، ويرضى تلك الصلة الروحية التى توحى إليه بأنه قريب إلى ربه ، يستجيب دعوته كلما دعاه ! ! على أنه كان يجد العزاء عن هذا التقصير فيما يعتقده من أن « الدين المعاملة » ، وأنه فى سلوكه مع نفسه ، وسلوكه مع غيره من الناس ، لا ينشد إلا الخير ، ولا يبغى غير وجه الله .. الذى لا شك سيلقى عنده جزاءه على جميل صنعه .

على أنه كان فى هذه المرة يعجب من عبث الظروف به . وكيف أنها شاءت فى هذا العبث أن تعطيه غير ما يشتهى . تعطيه تلك الوظيفة التى لا تلائم طباعه واستعداده . . وظيفة السكرتير الخاص ، وما تتطلب فى صاحبها من أناقة ولباقة ، إلى جانب مؤهلات أخرى ، تقرب من الملق والرياء ، اللذين لايعرفهما فى أخلاقه ، ولم يتعود عليهما أو يتكلفهما فى ماضى حياته . ثم هى بعد ذلك تزجّ به كارهاً إلى ميدان السياسة ، وقد حرص طول عمره على أن يبعد بنفسه عنه ، وهو يرى سوء الحال ، وفساد الأوضاع من حوله .

ولكنه مع ذلك لم يجد مناصاً من أن يستعين بالصبر على ما هو فيه .

وهو مطمئن إلى أن العناية الإلهية سوف تتداركه . وأنها على سابق عهدها به لن تتخلى عنه . فهى لا تريد له إلاّ الخير الذى سوف يكشف الغيب عنه ، وما عليه إلاّ أن يترك الأمور تجرى فى أعنتها . مؤمناً بأن الخير فيما اختاره الله .

وفى الحقيقة لم تكن له إرادة فى الحصول على تلك الوظيفة . فقد سقطت الوزارة فجأة . وجاءت وزارة جديدة ، من بين أعضائها وزير للداخلية ، تربطه به علاقات خاصة من التقدير والمودة . اختاره ليكون سكرتيراً خاصًّا له . وهو منصب من مناصب الثقة . لم يجد الوزير الجديد أحداً غيره يستطيع أن يشغله .. !! أو هكذا قال له الوزير ، ليقنعه ويغريه . . فلم يجد بدًّا من الاستلام والقبول .

دخل على الوزير بعد أن تعالت دقات جرسه . وكان الرجل كعادته حفيًّا به ، عاطفاً عليه ، وإن بدا على محياه ما يدل على اهتمامه وانشغال باله . وهو ما فطن السكرتير الخاص إليه ، عندما فاجأه الوزير بسؤاله :

— هل لديك معلومات عن موضوع شيخ خفراء « عزبة البط » ..؟

فاندهش الأستاذ أنور من هذا السؤال الغريب ، يصدر عن الوزير وهو فيما هو فيه من مشاكل السياسة العليا ومشاغلها . يسأل بمثل هذا الاهتمام عن شيخ خفراء « عزبة البط » كما لو كان الموضوع من موضوعات الساعة . . مع أنه هو نفسه ، السكرتير الخاص ،

لا يكاد يذكره ! وقدّر أن السؤال له ما وراءه . .

فأجاب بقدر ما يتذكر :

— الذى أذكره أن أحد أعضاء مجلس النواب تدخل فى هذا الموضوع ، على اعتبار أن ظلماً وقع على شيخ الخفراء . وقد اتصلت بالمدير فى هذا الشأن ، عساه إن وجد ظلماً ، أن يرفعه عن صاحبه .

فابتسم الوزير عندئذ ابتسامة عريضة ، وقال :

— هذا ما قدّرته . . والأمر على كل حال ليس هامًّا ، ولكنى أود فى مناسبته أن أنصحك بأخذ حذرك فى معالجة تلك الأمور . فكلمتك للمدير هى كلمتى التى يتصرف على أساسها . . والنواب والشيوخ يعلمون ذلك . . ومن ثم فهم يلجأون إليك فى مثل هذه المسائل . . وقد يكون لبعضهم ، ولا أقول كلهم ، مآرب خاصة فى قضائها . .

وزادت ابتسامته :

— والحديث الشريف يقول : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » .

ولم يسأل الأستاذ أنور عما إذا كان النائب الوسيط فى هذه المسألة من ذوى المآرب الخاصة . . كما لم يسأل كيف وصل الموضوع على تفاهته إلى علم الوزير . فقد شغلته الدهشة عن هذا كله . الدهشة من أن تكون حقيقة الصلة بين نواب الأمة والحكومة . . ونظرة

الحكومة إلى نواب الأمة . . على تلك الصورة الكئيبة من الريب والشكوك . وعاد إلى مكتبه ، بعد أن تلقى هذا الدرس ، وهو أكثر اكتئاباً . .

رأى المكتب ، كما كان يراه كل يوم ، كخلية النحل ، يضيق بزائريه . وهم خليط من أصحاب الحاجات . جلهم من شيوخ الأمة ونوابها ، وبعضهم من كبار الأعيان والموظفين . طائفة منهم تقتعد مجالسها ، وهى تتصنع الوقار ، وتتعجل المقابلة ، وطوائف أخرى يدور بعضها حول بعض ، فى حلقات تتجاذب مختلف الأحاديث ، فى المسائل السياسية والاجتماعية . العامة والخاصة . ويتبادلون من مظاهر الشوق ، وسعادة اللقاء ، ما يبدو بعضه صادقاً وبعضه الآخر متكلفاً ، تغلب عليه الصنعة وضرورات المجاملة .

وكان يرقب الجميع وهو جالس إلى مكتبه . ولا يملك نفسه من الإشفاق عليهم ، وهم يتكلفون نحوه ما يتكلفون من رياء وملق . ويعجب للحرص كيف يذل أعناق الرجال حتى تهون عليهم أنفسهم إلى هذا الحد ، وهم يعلمون أنهم لا يسعون عند الوزير فى حقرق ترتاح ضمائرهم للمطالبة بها ، وإنما فى منح وعطاءات يبذلون ماء الوجه لاستجدائها .

ومن العجيب أنهم كانوا فى محاولاتهم للظفر بمقابلة الوزير ، وإن اختلفت أسباب المقابلة بالنسبة لكل واحد منهم ، يبررونها جميعاً بسبب واحد لا يتغير ، كما لو كانوا قد اتفقوا عليه فيما بينهم . المقابلة لأسباب

عامة ، وليست لأسباب خاصة . وهى عاجلة لا تتحمل الانتظار ! .. ولكن السكرتير الخاص ، فى تعوده على هذه النغمة التى أصمت أذنيه بكثرة ترددها ، كان يعلم بالمران والخبرة ، أن المصلحة العاجلة التى كانوا يسعون فيها لا تعدو ، على تنوع أسبابها ، أن تكون من أمثال موضوع شيخ خفراء « عزبة البط » وأنها إن ارتفعت عن ذلك أحياناً ، فإن مستواها لا يتجاوز مشاكل بعض العمد ، والشكاوى من بعض رجال الإدارة ، أو الوساطة لنقل وتعيين بعض الموظفين من الأقارب والمحاسيب .

ومع ذلك فقد كان عليه أن يبدى الاهتمام بمسائلهم ، وأن يبذل من الجهد فى الترحيب بهم ما يرضى الشعبية الكبيرة التى كان يتمتع بها الوزير ، ويحرص على اتساع نطاقها . فكان يدخلهم عليه ، واحداً بعد واحد ، إذا سمحت الظروف بذلك . أما إذا لم يتسع له الوقت ، فقد كان يدعوهم إلى الدخول دفعة واحدة . . ! وهو يعجب لهم وهم يحومون حول معاليه ، ويتزاحمون فى الوصول إليه ، كالصبية فى تزاحمهم أمام بائع الحلوى ، وهو واقف أمام مكتبه يبتسم لهم ، وأذنه تبدو صاغية لما يقولون ، ويده اليسرى ممدودة لتلقى طلباتهم المكتوبة ، بينما اليد اليمنى تصافحهم ، قبل انصرافهم ، فى حرارة يتعمد المبالغة فيها ، كما لو كان يعتذر لكل واحد منهم عن عدم مقابلته على انفراد . . !

وكان الوزير ، بعد انصراف زائريه ، يسلم إلى سكرتيره ما تلقى

من طلباتهم ، وهو يقول :

— تحوّل كالمعتاد إلى جهات الاختصاص ، لبحثها كغيرها ، وعمل اللازم فى شأنها طبقاً للقانون . . .

ومع ذلك فقد كان مما يدعو إلى السخرية حقاً أن يكون بين الزائرين فى كل يوم من يجىء ليشكر الوزير على اهتمامه بمسألته التى تم قضاؤها بما ظنه من فضل معاليه وكرمه . وكان الوزير لا يجد بأساً ولا حرجاً فى قبول هذا الشكر ، وهو يعلم فى قرار نفسه أنه لا يستحقه .

وكان عدد أصحاب الطلبات المقدمة إلى معاليه كبيراً فى هذا اليوم . فقال الوزير بعد أن تخلص منهم دفعة واحدة :

— أظننا قد انتهينا من أصدقائنا الكرام . . ومن طلباتهم التى لا تنتهى . . وعلينا الآن أن نفرغ لأعمال الوزارة .

وهنا أجاب السكرتير الخاص :

— لقد حان موعد انعقاد لجنة المديرين ، وأعضاؤها بالباب ينتظرون الإذن بالدخول .

— وماذا بعد اللجنة ؟

— ميعاد واحد . تحدد للأستاذ على بك عبد الرحيم عضو الشيوخ . . بناء على تعليمات معالى الوزير .

فضحك الوزير قائلا :

— أو بناء على إلحاح على بك . . على كل حال ربما يحضر قبل

انتهاء اللجنة فأرجو أن تطلب إليه الانتظار.

وانعقدت اللجنة برياسة الوزير ، بعد أن أضاء النور الأحمر فوق باب مكتبه . .

والنور الأحمر ، فوق مكتب الوزير ، إشارة لا تقل فى خطرها عن اللافتات التى تلصق على مداخل بعض الطرق والمناطق المحظورة ، ويكتب عليها بالخط العريض : « منطقة عسكرية . . ممنوع الدخول ، أو الاقتراب ، أو التصوير » .. تبعث هى الأخرى على الرهبة فى النفوس . ينظر إليها الرائى وهو مقدر لخطورتها وخطورة ما يجرى وراء أبواب مكتب الوزير من أمور تتعلق بسياسة الدولة وأسرارها العليا ...!! على أن إضاءة هذا النور الأحمر ، وإن كان لها فى بعض الأوقات ما يبررها ، إلا أن السكرتير الخاص كان يعلم أن الوزير يلجأ إليها للراحة أحياناً . . وأحياناً أخرى التماساً للترفيه والتسلية بالدردشة مع بعض زائريه فى أمور لا علاقة لها بمصالح الدولة ولا بأسرارها. وإن هذا النور الأحمر طالما أضاء على مكتب الوزير ، بينما معاليه يتطلع من النافذة ، وهو جالس على مقعده الوثير فى استرخاء لذيذ ، بعد أن يكون قد فرغ من غسل يديه وتعطيرهما بعد الانتهاء من مصافحة الزائرين . . !

وفى ظل هذا النور ، انعقدت لجنة المديرين . وطال انعقادها . وحضر الأستاذ على بك عبد الرحيم . وكان رجلا يميل إلى الطول . ممعناً فى النحافة ودقة التكوين . طالما رآه الأستاذ أنور فى مجلس الشيوخ ، وهو

على ضآلة جسمه ، يزأر كالأسد ، وينطلق لسانه فى قوة وذلاقة ، يدافع فى جرأة عجيبة عن الحق كما يعتقده ويؤمن به ، دون مراعاة لمصلحة خاصة ، أو مجاملة قد يقتضيها المقام . . فكان شديد الإعجاب به ، يحمد الله على الظروف التى جمعت بينهما أخيراً ، ويحمد للجنة المديرين استغراقها فى الاجتماع بما يتيح له فرصة أوسع للاستمتاع بالحديث مع هذا الرجل العظيم .

ونظر الأستاذ على بك عبد الرحيم إلى الأوراق المكدسة على مكتب السكرتير الخاص ، وقال له :

— لا تشغل نفسك بوجودى . أرجو أن تنصرف إلى عملك فهو الأهم .

فضحك الأستاذ أنور ، وقال :

— إنها شكاوى وعرائض الزائرين . . حصيلة اليوم .. كلها مسائل تافهة ، لا يضيرها الانتظار . .

وهنا أعاد عضو الشيوخ فنجان القهوة ، الذى كان على وشك أن يرتشف منه إلى مكانه ، فوق المكتب ، وقال فى ملاحظة عاتبة :

— يا بنى ، قد تكون هذه المسائل تافهة فى رأيك ، وربما فى رأى الوسطاء الذين تقدموا بها للوزير ، ولكنها ليست كذلك عند أصحابها الذين يعلقون ، ولا شك ، أهمية كبيرة على تحقيقها . . .

وأراد السكرتير الخاص توضيح المقصود من كلامه ، فقال :

– ولكنهم يبذلون فى جهلهم بحقائق الأمور جهداً ضائعاً . . أو يسلكون طريقاً خاطئاً . فهذه الطلبات ، بعد وصولها إلى الوزير ، تحول تحويلاً عادياً إلى جهات الاختصاص للتصرف فيها. وكان الأحرى بأصحابها ، بدلا من ضياع الوقت ، تقديمها مباشرة إلى تلك الجهات.

وانطلق عضو الشيوخ يشرح :

– هذا صحيح . ولكن جهات الاختصاص ، التى تشير إليها ، بعيدة عنهم . الوصول إليها أصعب عليهم من الوصول إلى الوزير . . هكذا شاء النظام الذى نعيش فيه . ووسيلتهم إلى الوزير يجدونها سهلة فى شخص النائب أو عضو الشيوخ . . أو رجل النفوذ . . كل واحد من هؤلاء محتاج لأصواتهم وتأييدهم فى الانتخابات . وإن عليه فى نظير تلك الأصوات أن يدفع الثمن . . وبذلك انفسح المجال للمساومات التى ترضى نزعة الغرور وشهوة التحكم . . فى نفوس الناخبين عندما يشعرون بمبلغ حاجة هؤلاء الكبراء والعظماء إليهم . وتتيقظ عندهم غريزة الكسب والسعى وراء المنفعة التى يعملون على إشباعها فى نهم كبير ما دامت الفرصة قد واتتهم بعد طول حرمان . . والوسيط هو الآخر ، مهما كانت قوته ونفوذه ، يعلم أن له منافسين فى دائرته ، من المتطلعين إلى مركزه ، وأنه معهم فى سباق لتملق الناخبين وكسب صداقتهم . . والوزير بدوره ، فى حرصه على تدعيم مركزه ، وتطلعه إلى رياسة الوزارة ، عليه أن يسعى إلى كسب رضى النواب

والشيوخ وتأييدهم . . بمختلف الطرق . . التى قد تكون مشروعة أحياناً . وأحياناً غير مشروعة . . وهكذا دواليك إلى أرفع مستويات الدولة . . حمّلنى وأنا أحملك ! !

وعلق الأستاذ أنور :

– يعنى حلقة مفرغة من الرياء والنفاق . . تضيع فيها المصلحة العامة . .

واستطرد عضو الشيوخ :

– ولعلك ترى من خلال تلك الحلقة مبلغ التفاوت فى درجات النفاق بين الناس ، وارتباطها بما ينازع نفوسهم من أطماع يسعون إلى تحقيقها بالحق أو بالباطل . . دون وازع من ضمير . . أو احترام للعدل والقانون . حتى وصلت إلى الذروة فى حالتنا الراهنة وبلغت فى خطورتها إلى مرتبة الصنعة . . صنعة الرياء والنفاق ، التى أصبح يحترفها صغيرنا وكبيرنا على السواء . .

– وما هو العلاج إذن ؟ !

وهنا اعتدل الشيخ المخنك فى جلسته وأجاب :

– العلاج فى البحث عن أصل الداء . لقد تأصل النفاق فى نفوسنا بعد أن أصبح ، دون القانون ، طريقاً لقضاء الحاجات . ولم تعد الحاجات نفسها حقوقاً تؤخذ بالقانون ، ولكن أسلاباً يسهل الفوز بها عن طريق استغلال النفوذ . . طريق الوساطة والوسطاء . وهذا أمر

لا عجب ولا غرابة فيه . فكلما انحسر ظل الحق والقانون ، امتدت ظلال النفاق والرياء . . امتدت لتصبح مقبرة فسيحة الأرجاء للقيم والفضائل الذاتية ، تدفن فيها مع الشجاعة والإباء ، عفة النفس وطهارة اليد واللسان . وتوأد تحت ترابها حرياتنا المقدسة وأولها حرية الرأى والكلمة . . .

— يعنى أن العلاج فى سيادة القانون .

— نعم . هذا هو العلاج الوحيد . سيادة القانون على الكبير قبل الصغير . ليكون الأمر أمر حقوق وليس أمر استغلال أو مجاملات . وعلى كبارنا أن يكونوا القدوة فى احترام القانون . . وفى البعد بأنفسهم عن تعطيله بالملق والرياء .

فقال الأستاذ أنور وقد أخذته نوبة إعجاب بالرجل ، وثقة فيه ، حتى لم يجد داعياً للتحفظ فى كلامه :

— ولكن هؤلاء الكبار هم أصل الداء . هم الذين أفسدوا البلد . لقد اعتادوا التزلف والرياء فى كل حديث يدلون به ، أو خطاب يلقونه ، أو حتى فى مجالسهم الخاصة . يبالغون فى الكلام عن شخص الملك مبالغة تخرج عن حدود المعقول ، وتتنافى مع كرامتهم كمسئولين . فالملك لا بأس من أن يكون المواطن الأول . ولا حرج فى أن يكون الملك الصالح . . . أما أن تكون إرشاداته وتوجيهاته ورغباته السامية هى المحرك الوحيد لهم للقيام بواجبهم ومسئولياتهم فى الخدمة العامة .

فهذا هو العجب كل العجب . إنهم بذلك يلغون أنفسهم ، ويهدرون كرامتهم وإنسانيتهم ، دون أن يشعروا بما فى ذلك من سخف وصل إلى حد السخرية بعقل الإنسان وقيمته ! فالأمن عندهم مستتب بأنفاس جلالة الملك . . ومحصول القطن نجا من الدودة بأنفاس جلالة الملك . . كما لو كانت الأنفاس الملكية السامية أجدى على الأمن من فرق الشرطة ورجالها ، وأشد فتكاً بدودة القطن من أقوى المبيدات الحشرية !

وأصبح الشعب موضعاً للهزء والعبث به بعد أن تقطعت أنفاسه ، وأنفاس المسئولين فيه . ولم تبق له غير أنفاس مولانا الملك ينبعث منها وحدها ذلك البخار الذى تسير به تلك القاطرة البائسة ، تلهث بمن فيها من العجزة المقعدين !

واستأنف الأستاذ أنور حديثه فى مرارة وأسف ، وقال بعد أن استغفر الله :

— والأسماء . . أسماء الملك . . لقد أصبحت بين المراثين والمتملقين ، من الصغار والكبار أكثر ذيوعاً وانتشاراً . . من أسماء الله الحسنى . . تطلقها الحكومة على المؤسسات والمستشفيات ، والمدارس ، والكبارى ، والطرق والمدن . . وحتى على أمصال البلهارسيا وغيرها من الأمراض المتوطنة . . بمناسبة وبغير مناسبة . . وجرى الصغار فى ركاب الكبار . . فكثيراً ما تجد محلا للبقالة ، فيه من الصراصير والذباب ، أكثر مما فيه من حبات الزيتون ، وقطع الجبن والصابون ومعلبات السردين ، ومع

ذلك تبلغ المغالطة والرياء بصاحبه أن يطلق عليه « بقالة الملك الصالح » . . وإلى جانبه حانوت متواضع للحلاقة تهشمت مقاعده أو المقعد الوحيد فيه ، ولا يمنع ذلك من أن يطلق عليه الحلاق الظريف « صالون المواطن الأول » . . ويجاور الاثنين محل لبيع الفسيخ ، رائحته تزكم الأنوف وعليه لافتة تحمل على استحياء اسم « فسخانى ملك مصر السودان » .

وهز الأستاذ عبد الرحيم بك رأسه موافقاً ، وقال :

— لا شك فى أن المسئول عن فساد الأوضاع هم ساسة البلد . أو بعبارة أخرى الأطماع التى تسيطر عليهم ، ويجرون وراءها بالرياء والنفاق . . فاسين أن المثالية هى الإيمان بالمبادئ الرفيعة والاستعداد للتضحية فى سبيلها . . ونحن هنا بعيدون عن هذا وذاك . نتظاهر بالإيمان ، وندعى التحمس له . . ولكن ليس للتضحية فى سبيله ، وإنما لجر الغنم والفائدة من ورائه . . أتدرى فيم كان نجاحنا حتى الآن . . ؟ !

والتفت إلى الأستاذ أنور ضاحكاً :

— فن التمثيل . . كله للأسف تمثيل فى تمثيل .

وهنا انطفأ النور الأحمر . وبدأ أعضاء اللجنة ينصرفون .

ودخل عضو الشيوخ ليقابل الوزير . وفى نفس اللحظة التى أغلق فيها الأستاذ أنور الباب من ورائه ، تذكر أمراً عاجلا كان يريد عرضه على رئيسه . فدفع الباب . ودخل . . . .

وعندئذ فاجأه آخر منظر كان يتوقع أن يراه ! ذهل عندما رأى على بك عبد الرحيم . . ذلك الصرح العالى للكرامة والأنفة والكبرياء . . وقد انحنى أمام الوزير فى وضع ذليل ، وهو متشبث بيده ، كأنما يريد تقبيلها ، والوزير يسحبها فى شىء من الاسترخاء ، ويصيح بقوة ، وابتسامته لا تخلو من سخرية :

— العفو . . العفو . . أستغفر الله يا على بك .

ولم يتمالك الأستاذ أنور فى إشفاقه على الرجل وهو يشترك مع الوزير فى تمثيل هذه المهزلة المؤلمة . . أن سارع بالعودة إلى مكتبه ، وهو يردد لنفسه :

— صحيح ، كله للأسف تمثيل فى تمثيل !

على أنه حمد الله على أن الوزير وعضو الشيوخ لم يتمكنا من رؤيته وهما مشغولان بما كانا فيه من مهزلة لم تخطر له على بال . وأحس بأن الرجل الذى كان شامخاً أمام عينيه منذ لحظة كالطود فى إبائه وشممه ، قد انهار فى غمضة عين ، أصبح كغيره من أشباه الرجال . .

وخرج عبد الرحيم بك بعد انتهاء الزيارة ، مرفوع القامه ، ثابت الأقدام كعادته . وودعه السكرتير الخاص إلى باب الخروج . . وهو يبتسم ، دون أن يدرى ، نفس الابتسامة الساخرة التى رآها منذ لحظة على شفتى الوزير .... ثم عاد إلى رئيسه ، فرآه يضحك ، ... يضحك ويقول :

— يريد هذا الثعلب العجوز أن يعقد معى صفقة . . صفقة يظنها مغرية !

وأمام النظرة البلهاء التى بدت على وجه الأستاذ أنور استمر الوزير يقول متهكماً :

— أو إذا شئت يسدى إلىّ خدمة . . يأسرنى بمعروفه . .

وهنا بدأ الأستاذ أنور يفيق من ذهوله وينطق قائلا :

— وماذا يستطيع أن يفعل لمعاليك ؟ !

فتصنع الوزير الجد وهو يقول :

— يعيننى عضواً فى مجلس الشيوخ !

— ولكن هذا فيما أعلم من سلطة الملك .

فضحك الوزير قائلا :

— إن عبقرية عبد الرحيم بك أقوى من سلطة الملك . .

— كيف ؟

— بالمكر والخداع !

— ما زلت عاجزاً عن الفهم !

وهنا بدأ الوزير يشرح :

— أنت تعلم أنى الوحيد من أعضاء الوزارة الذى لا مقعد له ، لا فى مجلس الشيوخ ولا فى مجلس النواب .

— هذا صحيح !

فضحك الوزير ، وقال :

— وقد جاء الرجل ، تفضلاً منه وكرماً : يصحح هذا الوضع ! .

يريد أن يتنازل لى عن عضويته فى مجلس الشيوخ .

— لماذا ؟

— فى نظير أن أسعى له فى الحصول على رتبة الباشوية ، التى لا يمكنه الحصول عليها طالما ظل عضواً فى هذا المجلس . . فالنواب والشيوخ لا يجوز الإنعام عليهم بالرتب والنياشين ، طالما ظلت عضويتهم للمجلسين قائمة . . . ولذلك فقد جاء عبد الرحيم بك يعرض الاستقالة من مجلس الشيوخ . . وبذلك يفسح لى مكاناً للتعيين فيه .. وفى نفس الوقت يزيل العقبة التى تحول دون الإنعام عليه بالباشوية . . وهى صفقة كما ترى ماكرة . .

وهنا بدأ الأستاذ أنور يفهم . وتراءى له منظر الرجل ، عاقد الصفقة ، . . فى ذله واستخذائه . . وتذكر أن فى برديه جسماً ناحلا كاد انحناءته أمام الوزير أن ينكسر . . فقال ضاحكاً :

— أظن أن كسوة التشريفة ثقيلة الوزن بخيوطها وزخارفها الذهبية .

فقال الوزير مستفهماً :

— ماذا تقصد ؟

— أقصد أن الباشا الجديد ربما يعجز عن حملها !

— ومن قال لك إنه هو الذى سيحملها ؟

— ومن سيحملها إذن ؟

فأجاب الوزير وقد عادت إليه سخريته :

– لا أحد . . . إنها هى التى ستحمله . . ستعود به ثانية إلى عضوية مجلس الشيوخ . . ثم تحمله بعد ذلك إلى أبعد مما تظن ! !

www.liilas.com
منتديات ليلاس

الثوب الممزق

الثوب الممزق

كانت « راجية » فى الثالثة والعشرين من عمرها ، شابة متزوجة ، وأمًّا لطفل جميل فى الخامسة من عمره . تجمع بين سحر الشرق ، وفتنة الغرب . بعد أن ورثتهما عن أب مصرى وأم فرنسية . وقد استطاعت مزجهما فى كيان نورانى يشع منه الجمال ، وتتلألأ فيه البراءة . جمال إلهة من آلهة الأساطير ، وبراءة ملاك من ملائكة السماء . كل ذلك فى إطار بديع يشف عن روعة الخلق ودماثة الخلق ، وتضيئه ابتسامة دائمة تأسر القلوب برقتها وعذوبتها .

وكانت متطرفة فى مصريتها ، غيورة عليها ، ومتعصبة أشد التعصب لها ، كأنما تريد أن تنأى بنفسها عن مظنة التأثر بذلك الدم الفرنسى الذى يجرى فى عروقها الشفافة الرقيقة ، وتخشى أن يباعد بينها وبين أترابها من بنات جنسها . فكانت حريصة على أن تكون صديقاتها ، كلهن أو جلهن ، من المصريات ، وكان حديثها معهن دائماً باللغة العربية التى تجيدها إجادة تامة ، إلى جانب غيرها مما أجادت فى ثقافتها الأجنبية من لغات .

ولقد اكتملت لها سعادتها عندما رزقت بطفلها الصغير الذى كان

يضارعها فى جمالها ورقتها . كأنه قطعة أصيلة قُدّت من البراءة والعذوبة التى صيغت الأم منهما ، وكان منظرهما معاً متعة للعين ، تبعث على راحة القلب والفؤاد ، وتدعونا إلى تمجيد الرحمن فى بديع صنعه وتصويره كلما وقعت أبصارنا عليهما ، وهما يهلان فى كل صباح على شاطئ سيدى بشر من صيف كل عام . والطفل يجرى ويدور حول أمه ، كالمهر الأصيل عندما يطلق عنانه ، وقد امتدت رمال الشاطئ من حوله وانفسح المجال أمامه ، ليجرى ويدور . . بينما عين الأم عالقة على الدوام به ، لا تفارقه فى حركاته وسكناته . تريده على أن لا يبعد عنها . وأن لا يختفى لحظة واحدة عن أنظارها . فإذا أراد أن يلهو ويلعب فليكن ذلك معها أو على مقربة منها .

هكذا كنا نراها مع صغيرها . ولوعة به . تصب كل حنانها وحبها فيه ، كما لو كان الصغير كل حياتها ودنياها .

ولعل الطفل كان يعرف ، بالغريزة ، مدى ما فى تلك الحماية الحانية من تطرف ومبالغة ، فكان يحلو له فى شقاوة الأطفال وبرىء مكرهم ، أن يعبث بها وبأمه معها ، ولعله أيضاً كان يضيق بها ، ويرى فيها قيداً يسعى ، بما فى مقدوره من وسائل ، إلى تحطيمه ، أو الثورة عليه كلما واتته الفرصة . فكان ينتهز أحياناً انشغال أمه بالحديث معنا ليهرب بعيداً عن حمايتها . وإلى الأمكنة التى يعرف أنها محظورة عليه وأن أمه تكره بالذات ذهابه إليها .

وكنا نضحك منها ، والقلق مستبد بها ، وهى تصيح بولدها :

— حاسب يا محمود . . إياك والسور . . ابعد عنه

بينما الطفل فى تخابثه ، يتظاهر بعدم سماعها ، ويتجاوز السور محاولا أن يتسلق الصخرة . . والأم يزداد صياحها :

— إياك تطلع الصخرة . .

وتقفز من مكانها لتجرى وراءه ، عساها تحول بينه وبين السور والصخرة ، وما يرتطم بهما من أمواج هادئة أو هادرة ، وتعود ممسكة بالطفل من يده ، وهى تقول بأنفاس لاهثة :

— أنا قلت لك ألف مرة الصخرة ممنوعة . . لازم تسمع الكلام . . وإلا . .

وترفع يدها ، كما لو كانت ستضربه . ولكن اليد الحنون كانت تقف دائماً معلقة فى منتصف الطريق . .

وكان المنظر ، بما يصحبه من صياح الأم ، وعبث الطفل ، يتكرر أمامنا على صورة لا تكاد تنقطع ، حتى أصبحت مألوفة لدينا نفتقدها إذا ما غابت عنا « راجية » وطفلها .

* * *

وذات يوم ، وكنت معها على انفراد ، قلت لها ، وأنا أعجب من إصرارها على تلك المراقبة الدائبة :

— لماذا لا تتركين ابنك ينعم بحريته ؟ ! . . يستمتع بها كغيره

من الصغار ؟ !

فأجابت فى دهشة :

– وهل منعته من شىء يحبه ؟ !

– لقد منعته من أحب شىء لديه .

– وما هو ؟ !

– منعته من أن يحيا حياته كما يشتهى .. وكما يشتهى من فى سنه !

– كيف ؟

– دعيه بالله عليك يذهب إلى حيث يشاء . . ويلهو كما يشاء . ويكفى أن تكون عينك ساهرة عليه . . ولكن من بعيد . . ومن حيث لا يشعر . صدقينى أن هذا هو ما يرغب فيه . . وإلا فإنك تقتلين شخصيته .

فقالت مترعجة :

– أنا ؟ ! أقتل شخصيته . وكل أملى أن أجعل منه رجلا !

– أنت واهمة . . إذا أردتِه أن يكون رجلا فدعيه يخوض معاركه .. يتعارك مع أقرانه وينافسهم فى لعبهم ، يقع مثلهم على الأرض ويأتيك بخدوش فى قدميه أو جرح بسيط فى فخذه أو كتفه . . بل يجىء إليك ممزق الثياب أحياناً . . صدقينى هذا هو ما تصبو إليه نفسه . . فهل تسمحين له بشىء منه ؟ !

فضحكت وقالت :

– طبعاً لا أسمح .. لأنى أخاف أن يجيئنى لا بجرح صغير كما تقول ، ولكن بجرح كبير . . وهذا ما لا أقوى على احتماله .

– ولكن هذا الجرح سيكون دليلا على أنه خاض المعركة .

– أى معركة ؟ ! إنه لم يصبح بعد جندياً فى ميدان قتال !

وإزاء ما بدا فى كلامها من سخرية ، عدت أقول :

– إنه منذ أن خرج إلى الدنيا وهو فى ميدان قتال . . وسيظل طول عمره فى ميدان قتال . ألا تعلمين أن الحياة سلسلة من المعارك الطويلة ؟! معارك الطفولة ، ومعارك الشباب ، ومعارك الرجولة والكهولة .. وحتى معارك الشيخوخة ؟ ! وأنه قد كتب علينا فى جميع مراحل حياتنا أن نخوض هذه المعارك واحدة بعد واحدة . وأن ابنك إذا تخلى عن معارك طفولته فقد يفقد معارك شبابه ورجولته ؟ ! أو على الأقل يصبح غير مهيأ لها . . ؟ وعندئذ سيلتفت إلى ماضى حياته ، سيلتفت إلى الوراء بحثاً عن أسباب عجزه . . وسيجدك أمامه . . المسئولة الوحيدة عن هذا العجز . فى هذه اللحظة سيحقد عليك .. حتى فى حبه لك ! !

وبدا عليها الاهتمام ، وإن كانت لم تتخل عن سخريتها ، فقالت :

– وتعتقد أنه يكفى فى ذلك أن يعود إلى وقد تمزقت ثيابه ؟ !

فقطعت عليها سخريتها بقولى :

– إنك تذكرينى بقصة قرأتها أخيراً . . تدور حول أم على

شاكلتك ، شديدة العناية بطفلها إلى درجة غير عادية . تؤدى له كل شىء . . ولا تترك له شيئاً يؤديه بنفسه . وشب الطفل مسلوب الإرادة ، لا يتحرك إلا بأمرها ، ولا يتصرف فى صغيرة ولا كبيرة إلا بإرادتها . . حتى عندما بلغ مبلغ الرجال . . الأمر الذى تعقدت منه فى النهاية نفسه ، فلقد كان موزعاً بين حبه لأمه وحقده عليها . وما لبث أن أصيب فى اضطرابه بلوثة ، فكان يتصيد الفتيات ويقتلهن فى جرائم يتفنن فى أن يجعلها مما يسمى بالجريمة الكاملة . . انتقاماً من أمه أشخاصهن . . وأخيراً ازدادت حاله سوءاً فأقدم على قتل والدته . . وجلس يبكيها . . !!

وهنا انتابها من القلق ما جعلنى أحيى باللائمة على نفسى وقد تماديت فى هذا الحديث دون أن ألاحظ مبلغ ما فيه من قسوة على تلك النفس الرقيقة ، وازداد شعورى بالإثم وأنا أسمعها فى انزعاجها تقول :

— أدعو الله من كل قلبى أن لا يكون هذا جزائى عند محمود . . فهو كل حياتى . . وقد أكون مبالغة فى تدليله . وهى حقيقة سيطرت على ، وأعترف أنى أقف حيالها عاجزة ! !

فقلت مترفقاً بها :

— لماذا لا تحاولين الاعتدال فيها ؟ ! أظن أن قوة الإرادة لا تنقصك !

فضحكت فى حزن وقالت :

— قوة الإرادة ؟ ! لم يبق لى منها إلا القليل . وهذا القليل يبدو

فقط ، ولسوء الحظ ، فى سلوكى مع محمود ! أما مع غيره فقد تعودت على أن لا تكون لى إرادة . . ! محمود هو الوحيد الذى أشعر معه بأن إرادتى موجودة . . . ولذلك تنتابنى ، فى حمايتى له ، نشوة غريبة . . نشوة الشعور بالقدرة الذى حرمت منه طول حياتى . . وتريدنى أنت على أن أحرم منه اليوم نفسى . . . وأنا لا أستطيع . .

والتفتت إلى كأنها تريد أن تعتذر ، وهى تقول :

— أرجو أن لا تتهمنى بالأنانية .

فضحكت قائلا :

— إنها أنانية مفهومة ولا عيب فيها . . أنانية الأمومة . . التى مهما بلغ من طغيانها ، فهى الوحيدة التى تعرف التضحية وتسعد بها !

ولم أكن أدرى أنى بهذا الكلام قد لمست فى قلبها جرحاً عميقاً لا يريد أن يندمل . إذ نظرت إلى بعينين غائمتين ، يكاد الدمع يترقرق فيهما ، وقالت بعد تفكير :

— أتدرى أنك بهذا الكلام تذكرنى بوالدتى ؟

— كيف ؟

— لأنى لم أعرف لديها تضحية الأمومة . . ولا حتى طغيانها ! . . فلقد ظللت طول حياتى أنشد عندها هذا الطغيان . . كنت أريده حتى لو كان بالغ العنف . . لأنه على الأقل كان يحمل معنى اهتمامها بى . . انشغالها بأمرى فى بعض الأحيان . . التفاتها إلى بأية صورة من الصور . .

ولكنها للأسف لم تكن معى أمًّا طاغية . . ولا أمًّا حانية .. لم تكلف نفسها هذا العناء . . كنت عندها شيئاً تافهاً لا يستحق أن يكون موضعاً للحنان أو للطغيان . . فانصرفت عنى فى سلبية قاسية فجعتنى فى أقدس عواطفى . . أما التضحية التى تتكلم عنها ، فمن الإنصاف أن أقول إنها عرفتها ، ولكن على غير ما وصفت ، .. لم تكن تضحية من أجلى .. كانت تضحية بى . . فقد تركتنى طفلة صغيرة ، وتركت والدى معى ، بعد أن تزوجت بآخر . . كانت كما قيل ، على صلة به . وهكذا وجدت نفسى ذليلة منذ الصغر ، وبفعل والدتى . التى أبت فى أنانيتها أن تمنحنى حنان الأم ، وشاءت فى طيشها أن تصمنى ووالدى بوصمة لم ترع فيها حق الزوج ، ولا عاطفة الأم .

وضحكت فى حزن وهى مستطردة فى روايتها :

— تصور أنها تكره أشد الكراهية أن يعرف الناس أنى ابنتها . . وأن تلك كراهية تزداد بمرور الزمن . . وكلما تقدم بى السن . . فهى ، فى تصابيها ، تصر على أن تظل فى عيون الناس شابة ، وليست أمًّا لشابة مثلى ، أصبحت اليوم متزوجة ، وأمًّا بدورها لغلام فى الخامسة من عمره مثل محمود . . الذى لا تعترف به حفيداً لها ؟! تكره أن يُعرف عنها أنها جدته !

وازدادت مرارتها وهى تقول :

— مسكينة أمى ! لست فى نظرها أكثر من شهادة حية على تاريخ

ميلادها . . مجرد شهادة ميلاد . . تكرهها وتنفر منها . . ولا تسعى لرؤيتها . . وإذا حدث وجمعتنا ظروف الحياة معاً أمام الناس ، فإنها تدعى أنى شقيقتها ، ولا أجد فى استسلامى ، بدًّا من الموافقة على هذا الادعاء . . وفى هذا تتلخص طباعها . . كما تتلخص علاقتى بها . .

فقلت لها وأنا أحاول التخفيف عنها :

— قد تكون أمك كما ذكرت . . وأمثالها موجودات فى الحياة . . ولكنهن ، على كل حال ، لسن المثل الصالح للأمهات . . ولعلك وجدت عوضاً عنها فى جدتك !

فابتسمت ابتسامة حزينة وقالت :

— ما رأيك فى أنى حاولت أن أنشد عند جدتى ما فقدت عند أمى من حنان ، ولكنى فشلت !

وضحكت قائلة :

— وإن كان فشلى جزئيًّا .. فقد وجدت عندها ما كنت أبحث عنه من طغيان ... وعلى كل حال فالظاهر أنى سيئة الحظ عند النساء . لقد كفلتنى جدتى لوالدى بعد مأساة والدتى ، وكنت أرجو أن أنعم فى كنفها بعطف الأم ورعايتها ، ولكن للأسف دفعها حقدها على أمى على أن تعاملنى المعاملة التى ترضى هذا الحقد دون أية عاطفة أخرى .. فلم أكن عندها الحفيدة المحنى عليها ، ولكن وليدة تلك الفرنسية الخائنة ، واعتقدت أو شاءت أن تعتقد أن من واجبها أن تكون صارمة فى تربيتى لتعصمنى

من الخطيئة التى اقترفتها أمى . وذهب ابنها ضحية لها . ونسيت فى حقدها أنى ابنة تلك الضحية . وأنى أنا الأخرى أستحق الرثاء والرحمة . فكان أن ذهبت فى شدتها معى إلى حد بعيد . تحملته صابرة ، تكفيراً عما فعلته أمى .. ، وكنت أرى والدى فى مأساته يذوب قلبه حزناً وشفقة على .. كان الوحيد الذى يحبنى وأحبه . . كان مسرفاً فى تدليلى . ربما لشعوره بأنى ضحية مثله . أستحق التعويض عما فقدت . . وهو كثير . فكنت موضع حنانه .. لطالما تعب المسكين من أجلى . تعب مع والدتى ، ومع والدته ، ومعى أنا أيضاً . . !

وشردت بذهنها إلى ذكريات الماضى ، وقالت :

— لقد سببت له متاعب كثيرة إذ أصبح فى شبابه المبكر فى مكان الأم والأب لابنة صغيرة تواجه الحياة فى عاصفة لا رحمة ولا هوادة فيها . وأن عليه أن يكون سنداً لابنته فى فجيعتها وفجيعته القاسية التى خلقت لهما فراغاً أليماً وكبيراً يتعين أن يملأه فى صبر وشجاعة .

وضحكت مستطردة :

— أذكر أنه فى إحدى مناسبات شم النسيم أهدى إلىّ كلباً من الشيكولاته . فرحت به فرحاً كبيراً ، ولكن هذا الفرح لم يمنعنى من الإقدام على أكل أذنه . . ! ! استجابة لنداء شهيتى المفتوحة . وبعد ساعات نسيت أنى أكلت أذن الكلب ! وطلبت من والدى أن يبحث لى عنها . ويعيدها إلى مكانها من رأس صاحبها !! كل ذلك والمسكين يحاول

تذكيرى بأنى أكلتها ، وأنا لا أصدق . وأبكى وأصرخ مطالبة بإعادتها إلى مكانها . وأخيراً عرض أن يشترى لى كلباً آخر . ولكنى لم أقبل ، صممت على إعادة الأذن التى أكلتها إلى مكانها . وكانت عاقبة التصميم أن أكلت فى النهاية علقة . . وهى فيما أذكر ، العلقة الوحيدة التى أتحفنى بها والدى فى حياته . . ونمت والدموع تجرى على خدى ، وفى الصباح كان الكلب أول ما وقع عليه نظرى ، فقمت إليه . . أتدرى ماذا فعلت به ؟ !

واستمرت تقول وهى تضحك :

— بادرت إلى أذنه الثانية فأكلتها ! ولعلها المرة الأولى والأخيرة التى ذقت فيها طعم الانتقام . وفى الحقيقة كان الطعم حلواً .

فضحكت متسائلا :

— طعم الانتقام أم طعم الشيكولاته ؟ !

فضحكت بدورها وهى تقول :

— ربما ضاعف كل منهما حلاوة الآخر . . فلم يكن من المعقول أن أسمح لكلب ، حتى لو كان من الشيكولاته ، أن يكدر صفو العلاقات بينى وبين والدى .

فداعبتها بقولى :

— لقد أصبحت إذن امرأة خطرة !

فأجابت منزعجة :

— لماذا ؟ !

— لأنك ذقت حلاوة الانتقام ، وقد تهفو نفسك إليها ثانية !

— لقد ذقتها مرة واحدة . . ومع كلب من الشيكولاته !

وأردفت ضاحكة :

— وما أظن أنى كنت أجرؤ عليه لو كان كلباً حقيقياً ، ولعل هذا هو سبب نكبتى حتى الآن ! فما أكثر المسعورين بين الناس ، وما أشد عجزى حيالهم !

— احمدى الله على أنك بالزواج قد تخلصت منهم .

وكأنما نكأت بذكر الزواج جرحاً ثانياً كان يؤلمها إذ أجابت فى أسى عميق :

— للأسف لم يغير الزواج من حالى شيئاً . كنت أظنه طريق إلى الخلاص . . طريق إلى الجنة . . وإذا بى أصبح فيه كالمستجير من الرمضاء بالنار . . . كانت جدتى تريد التخفف من مسئوليتها . وكنت أريد إنهاء شقائى معها . كما كانت تلح على والدى فى أن يبدأ حياته بالزواج من جديد . وكنت شديدة الرغبة فى أن أفسح له الطريق ، بعد أن ضحى فى سبيلى ما ضحى من شبابه . فكان أن قبلنا جميعاً أول طارق . وكان هذا الطارق هو زوجى ، الذى أحمل له كل عطف ومودة كنت أريد أن أحقق أحلامى معه كغيرى من البنات . وأن نعمل معاً فى بناء عشنا الجديد . وإذا بى أنتقل إلى بيت تسيطر عليه امرأة أخرى

علمت أنها استقصت كل أخبارى . وعرفت ما كنت أعانيه من مشقة . وأن ضعفى كان تزكيتى لديها لتختارنى زوجة لولدها . كنت فرصتها لاستبقاء سيطرتها كاملة على ابنها بعد زواجه ، كما كانت قبل هذا الزواج ، وقد كان من المعقول ، وقد واتتها الفرصة . أن تسعد بى وبها . ولكنها مع ذلك ، ولا أدرى لماذا قد حاولت تدميرى بكل الوسائل ؟ ! وكان هذا التدمير غير المفهوم هو هدفها الذى تسعى إليه بأخبث الطرق ؛ حتى لو كان فيها مساس بشرفى . وكنت أرى مناوراتها لتحطيمى وأسائل نفسى عن بواعثها ، وأنا فى حيرة من أمرى . وخصوصاً أنها وصلت فى ذلك إلى مدى يصعب تصديقه ، فمن ذلك أنها كانت تتودد إلى أحياناً فى غياب زوجى ، وتغرينى على الخروج بقولها :

— والنبى حرام عليك يا بنتى . . وأنت شابة وصغيرة . . تحرمين نفسك من الدنيا وتقعدين فى البيت محبوسة طول النهار من غير سبب ولا داعٍ .

— أنا سعيدة فى انتظار زوجى !

— يا أختى أنا موجودة فى انتظاره . . زيزى سألت كم مرة ، والواجب عليك زيارتها . لأجل خاطرى قومى زوريها .. وسلمى لى عليها شابة بنت حلال ، وصاحبتك مهما كان !

وتحت وابل من إغرائها ، وإلحاحها ، وجاجتها ، أجدنى فى النهاية فى طريقى لزيارة زيزى . .

وأعود إلى البيت فأجد زوجى ثائراً يقول فى تهكم :

— شرفت يا هانم .. غيبة وطالت .. ما كان بدرى .. انشغلنا عليك وسألنا عند صاحبتك .. قالت إنك غير موجودة !!!

فأثور بدورى عليه ، فهو مثلى ضعيف ، من السهل أن أثور عليه .

— ألا تستحى من التجسس علىّ ؟

— لا داعى للمغالطة . من حقى أن أعرف أين كنت!

— ألم تقل لك الست والدتك إنى كنت فى زيارة زيزى ؟ !

فتظهر الدهشة على ملامحه وهو يردد ببلاهة :

— زيزى ؟ !

وينظر إلى أمه متسائلا :

— ولكنك قلت إنها كانت عند فيفى .. !

وأتدخل هائجة ، وأنا أقول لها بدورى :

— تطلبين منى زيارة زيزى . وتلحين فى الطلب . ثم تقولين لابنك إنى كنت عند فيفى .. يا شيخة حرام عليك .. ارحمينى وارحمى نفسك !

أما هى فتقول فى برود عجيب :

— زيزى ..؟ فيفى ..؟ يا أختى والله ما أنا عارفة .. كله جائز ..!

ويظل ابنها موزعاً بين الشك فى أمه ، والشك فى زوجته .

وهكذا كان حالى فى البيت الذى انتقلت إليه بعد الزواج . أعيش أيامى على فوهة بركان لا يريد أن يخمد . وعندما ظهرت علىّ بوادر الحمل فى محمود امتلأت نفسى بالثقة وعاودتنى الآمال فى عطف حماتى وشفقتها . وخصوصاً أنها هى الأخرى ظهرت عليها فى أول الأمر بوادر غير مألوفة من الحنان . كان من شأن المبالغه فيها أن تثير فى نفسى بواعث الريب والشكوك . لولا ما كنت فيه من غفلة بسعادتى . وأنا أشعر بجنينى يتحرك بين أحشائى . . . كانت تأبى أن أقوم بأى عمل من أعمال البيت . حتى إعداد طعام الإفطار لزوجى ، الذى كنت أقوم به قبل الحمل ؛ وأنا جد سعيدة ، كانت تصر على أن تتولاه بنفسها بدلا عنى . وتدعونى فى اهتمام وفقة إلى التزام فراشى حرصاً على صحتى وراحتى . فأستجيب لرغبتها شاكرة . ثم لا ألبث أن أسمعها ، وأنا فى حجرتى ، تقول بصوت تريده على أن يصل إلى أسماع زوجى .

— يا عينى عليك يا ابنى .. والنبى حالتك تقطع القلب .. حضرتها فى سريرها وأنت تشقى وتتعب طول النهار ! يا حسرة عليك! والله ما أنا عارفة أنت متزوج ولا عازب! حتى فطورك ما فكرت فيه .. لكن الحمد لله أمك هنا ، موجودة وفيها الصحة ! وقادرة على خدمتك ! وبعد ما أموت ربنا يتولانى ويتولاك برحمته .. !!

كل ذلك وأنا أتميز من الغيظ فى ذلك السرير الذى اغرتنى بحبثها على العودة إليه ، أسمع ، وأنا راقدة فيه على مثل الشوك ، تلك العبارات

الاستفزازية . ويزداد غضبى وسخطى عليها وعلى نفسى وأنا أراها تدخل الحجرة على زوجى بطعام الإفطار ، تبتسم له . ويبتسم لها ، ابتسامات سعيدة ممتنة ، كانت من حق لو لم أقع فريسة سهلة لبلاهتى ولكيد حماتى . .

وهنا قاطعتها قائلاً :

— ولكنك فيما أعلم متزوجة منذ ست سنوات . ومناورات حماتك لم تعد خافية عليك فكيف ،وأنت على ما أنت عليه من ذكاء ، تقعين فى حبالتها كل مرة ؟ !

— حتى لو كان الذكاء متوفراً عندى ، فإنى أعتقد أن لا فائدة منه مع العجز .. وقد كنت طول حياتى ، وبحكم ظروفى ، عاجزة .. يتصرف غيرى فى كل شئونى .. ومع ذلك فلو كانت حماتى مثل جدتى مجرد امرأة قاسية ، لأمكننى بالذكاء واللطف والملاينة أن أحد من قسوتها . ولكنها غير ذلك . خطورتها فى ريائها وكذبها وتلونها . . لها أكثر من شخصية .. صدقنى لقد أصبحت أخاف منها على نفسى . . خصوصاً فى غياب زوجى . . !

— لماذا ؟ !

فقالت جادة :

— أعتقد أنها قد استرجلت !

فضحكت قائلاً :

— ماذا تقصدين ؟ !

— أقصد أن تطوراً جديداً طرأ على شخصيتها . لقد بدأت تفقد القليل الذى بقى لها من أنوثتها . . !

فلم أتمالك من التعقيب ضاحكاً :

— لعل هذا يكون بادرة خير لك !.. ما دمت تقولين أن لاحظ لك مع النساء ؟!!

فردت فى نبرات يمتزج فيها الخوف بالجد :

— ليس فى الأمر ما يدعو إلى الضحك .. لقد بدأ صوتها يتغير . . اخشوشن . . وزادت خشونته . . حتى لقد تحول إلى فحيح يخيل لمن يسمعه أنها أصبحت فى البيت حية تسعى !

— ما أبشع رأيك فى حماتك ؟

— إنها هى التى صنعته .

— لا أعتقد ذلك . . ! أنت التى صنعتِه . . أنت والضعفاء من أمثال زوجك وأبيك . . صنعتموه بعجزكم عن رد الظلم ، ودفع العدوان وعدم القدرة على معارضة السيطرة الغاشمة والوقوف فى وجهها حتى وصلت إلى درجة العسف والطغيان . . عسف أمك ، وطغيان جدتك وحماتك . .

فقالت مندهشة :

— ولكن كيف نكون نحن الضعفاء مسئولين عن هذا كله .. كيف

تكون مصدراً لجبروت هؤلاء العتاة !

– إن جبروتهم لا يعود إلى أية قوة ذاتية فيهم .

– وإلى أى شىء يعود إذن ؟ !

فقلت لها ، دون أن أجيب إجابة مباشرة على سؤالها :

– تأكدى أن مجتمع العجزة هو وحده الذى يصنع الطغاة !

وعقبت :

– هل تريدين نصيحة خالصة ؟ !

واستطردت دون انتظار لإجابتها :

– حاولى أن تجعلى من ابنك رجلا قادراً يعتمد على نفسه ، حتى لا ترى زوجته فيك مثل ما ترين أنت الآن فى حماتك وزوجك . . دعيه يخوض معاركه ، ويخوضها بشرف واستقامة .

فضحكت قائلة :

– ليعود إلىّ وقد تمزق ثوبه . . وتحت الثوب جرح صغير !

واستطردت جادة

– سأجتهد . . وأعتقد الآن أنى أستطيع ! !

تحريات تنقصها الدقة

تحريات تنقصها الدقة

عندما استقل الأستاذ طاهر عبد الحميد قطار الصباح السريع فى طريقه إلى مدينة طنطا ، كان السيد البرديسى فى وداعه . .

وصعد الأستاذ طاهر إلى القطار بعد أن صافح صديقه ، وهو يكرر له عبارات الشكر على تجشمه مشقة الحضور إلى المحطة فى هذا الصباح المبكر ، لتوديعه قبل سفره . وهو فى نفس الوقت يعجب من تلك المثابرة الدائبة التى يصر عليها البرديسى فى مجاملته ، ولا يكاد يخفى عليه ما فى تلك المجاملة من مبالغة لاتبررها ظروف الحال . فقد كان سفره ، فى الواقع ، لايدعو إلى كل هذا العنت من جانب صاحبه . . إذ جرت عادته على أن يسافر فى كل خميس ، وبهذا القطار ، لقضاء نهاية الأسبوع عند شقيقته وزوجها الأستاذ عطية إبراهيم ، ابن عمه ، الذى يعمل وكيلا للنائب العام بعاصمة الغربية . ومع ذلك فقد كان يرى الأستاذ البرديسى فى انتظاره بالمحطة فى كل مرة للقيام بتوديعه . وكذلك عندما يصل القطار من طنطا إلى محطة القاهرة ، كان يراه فى استقباله والترحيب بقدومه فى صباح يوم السبت ، بعد عودته من زيارة شقيقته .

ومن الغريب أن الأستاذ طاهر — وإن كان يعجب لهذه المثابرة على توديعه واستقباله — لم يكن يضيق بها ، بعد أن أصبحت جزءاً ثابتاً من برنامج سفره ، تعود عليها ، كما تعود على رحلته الأسبوعية . ووجد فيها نوعاً من التسلية والمتعة ، وخصوصاً أن الأستاذ البرديسى لم تكن تنقصه خفة الروح ، وملكة الفكاهة والمرح والدعابة .

صعد الأستاذ طاهر إلى مكانه ، بعد أن صافح زميله . وبدأ القطار يتحرك فى هوادة من المحطة إلى المزارع وهو يطوى فى طريقه ذلك البساط النضير من المروج الخضراء الذى يمتد أمامه ، « وطاهر » مشغول عنه بتأملاته وتفكره فى ماضى علاقته بصاحبه ، وفى الفرصة التى هيأتها الظروف لعقد ما بينهما ، هو والبرديسى ، من صداقة . ولا يملك نفسه من الضحك ، وهو يراها فرصة خليقة بشخصية صاحبه ، لا تخلو هى الأخرى من دعابة وسخرية .

عادت به ذاكرته إلى شهر رمضان ، عندما كان مدعوًّا لتناول الإفطار عند عمّه ، والد صهره الأستاذ عطية ، الذى يقطن فى شارع البغّالة بالقرب من ميدان السيدة زينب . وفى أثناء عودته من الزيارة ، مرّ بالميدان الكبير ، يتصدره مقام السيدة أم هاشم . وتشع أنواره على ماحوله من المنتديات والمقاهى ومحلات الكنافة والقطائف وعصير الفواكه . . . وغيرها من المتاجر العامرة بخيرات الله . . كلها تعج

بالناس ، تحت أضواء الثريات والقناديل ، كما لو كان الميدان ، فى تلك الساعة من الليل ، يعيش فى ضوء النهار .

وتذكر كيف أنه شعر بالعطش ، بعد الوجبة الدسمة التى تناولها عند عمه . أو ربما تيقظت رغبته فى الارتواء ، وهو يرى أمامه محلاً من محلات عصير الفاكهة ، تحمل أضواؤه المنعكسة على أوانى الشراب المختلفة الألوان إغراء لم يستطع ، أو لم يحاول ، مقاومته ، وخصوصاً أنه كان يميل ميلا خاصًّا إلى عصير القصب ، ويراه على بعد خطوات منه .

وذهب فى تأملاته وهو يضحك ، إلى أنه فى أثناء ارتشافه لكوب العصير ، وجد أمامه فجأة شخصاً يحييه بحرارة . فوجئ به ، كما لو كانت الأرض قد انشقت عنه . وإذا به الأستاذ البرديسى ، الذى لم يتذكر أنه رآه من قبل فى حياته . . !!

— أهلاً وسهلاً بالأستاذ طاهر . . .

— أهلاً وسهلاً . . . لنا الشرف يا أخى !

وبدا عليه أنه لا يعرفه . ولا بد أن تكون هذه الحقيقة قد ظهرت بصورة واضحة ، مما دعا صاحبه لأن يسأله :

— يبدو أنك لاتذكرنى !

— والله الشكل يمكن أعرفه . . ليس غريباً علىّ .. لكن الاسم؟! ولا مؤاخذة . . ؟

وتذكر الأستاذ طاهر أنه كان عندئذ يشعر بوخز من ضميره ، وأنه لو كان منصفاً لاعترف بأنه — وإن صدق فيا يتعلق بالاسم — قد كذب فيا يتعلق بالشكل . . والحقيقة أنه لم يكن يعرف الرجل من قبل . . لاشكلا ولاموضوعاً . . ولكن المجاملة التى تعودنا عليهابداعى الحياء ، فى مثل تلك المواقف ، هى التى دعته إلى الكذب . . وهو على كل حال كذب أبيض ، كما يقولون ، ولاضرر منه . .

وجاء إليه صوت البرديسى عاتباً :

— يا أخى تنسى زميلك فى المدرسة ؟ !

— زميلى ؟

— نعم زميلك . . أحمد البرديسى . . ألا تذكره ؟ !

وتذكر الأستاذ طاهر مرة أخرى ماكان من ارتباكه ، وأنه بدلاً من أن يستفهم منه عن المدرسة التى جمعتهما ، لجأ إلى الكذب مع نفسه مرة أخرى إزاء مارأى من تصميم صاحبه . فقال :

— إى والله . . مدة طويلة . . لامؤاخذة !

واجتهد مرة أخرى فى أن يتذكر . . ولكن دون جدوى . . .وكان قد فرغ من شرابه . وتقدم ليدفع الثمن . وإذا بالبرديسى يندفع صائحاً :

— عيب يا أخى . . أنت ضيفنا . . والله لايمكن . . !

وأسرع بإخراج قطعة فضية من فئة نصف الريال . . ودفع بها إلى

صاحب المحل . ولم يجد الأستاذ طاهر بدأ من التسليم .

وأخذ صاحب المحل القطعة الفضية ، وجعل يضرب بها ما أمامه من رخام ضربات متوالية عساه يسمع رنينها . ولكنها للأسف لم تستجب للنداء ! واستراحت على الرخام خرساء لايسمع لها رنين !

وعندئذ قال :

— لامؤاخذة . . نصف ريال برانى . . واحد غيره من فضلك .

وهنا ظهر الارتباك على أحمد البرديسى . . وأخذ يبحث فى جيوبه عن قطعة أخرى ، ويطيل البحث ، بما لم يدع مجالاً للشك فى أنه لايملك قطعة سواها . . !

وتذكر الأستاذ طاهر ماكان من لباقة تصرفه لإنقاذ الموقف ، إذ انتهز فرصة انشغال البرديسى بما هو فيه من بحث ، وناول صاحب المحل ، خلسة ، قطعة من عنده ، مع إشارة مقصودة ، قال الرجل على أثرها ، وهو يخاطب البرديسى :

— لا بأس . . لا تتعب نفسك . . بسيطة !

وضحك مستطرداً :

— ممكن نوزعها . . !

ودفع بالباقى إلى البرديسى . . محتفظاً بالقطعتين ، القطعة الزائفة والقطعة الصحيحة !

واستمر الأستاذ طاهر فى تأملاته ، يتذكر ماكان بعد ذلك من

انصرافه من محل العصير ومعه الأستاذ البرديسى . . صديقه الجديد . . الذى يحمل له كل تقدير وإعجاب بعد أن رأى كيف أنه جاد بكل ما يملك فى قيامه بواجب الضيافة نحو زميل قديم . . زميل عديم الوفاء لا يتذكر زملاء الدراسة وإخوان الطفولة والشباب . وخرج من المقارنة بأن البرديسى أفضل منه . وأحفظ لدواعى الصداقة والزمالة . وأن من واجبه أن يعمل على استدامة العلاقة التى تجددت بينهما ، تكفيراً عن جحوده ونسيانه .

وهكذا توطدت الصداقة بينهما . . .

وبينما الأستاذ طاهر يسعد فى تأملاته بذكرياته عن صديقه البرديسى وعن الحادث الذى جمع بينهما ، مرق القطار من محطة بنها ، وهو ينظر إليها شامخاً ، ويأبى فى ترفعه ، وهو القطار السريع ، أن يشرفها بوقفة قصيرة . . وهنا بدأت خواطر الأستاذ طاهر ، وقد قربت المسافة إلى طنطا ، تنصرف عن البرديسى ، وتتجه نحو شقيقته وعائلتها الصغيرة ، خصوصاً إلى ابنها طاهر . . ابنها الوحيد الذى سمّى على اسمه . .

* * *

وكان لشقيقته المكان الأول من قلبه . ولكنه كان يشعر فى كثير من الأحيان بأن الطفل يشاركها فى هذا المكان . بل ينافسها عليه منافسة شديدة . حتى لقد أصبح ، بذكائه وخفة روحه ، شغله الشاغل . كان يحرص على تعرف اتجاهاته وميوله . ويبادر بإرضائها وتحقيقها

عن طريق الهدايا التى يقدمها إليه . وكان الطفل محباً الاستطلاع ، مشغوفا بالمعرفة ، لا يمل من سماع القصص والحكايات ، ويجد لذة خاصة فى الاستماع إلى روايات خاله . كما يجد الخال سعادة كبيرة فى هذا الامتياز الذى خصّه به ابن شقيقته . فيندفع فى تخيّل الغريب من القصص الخرافية التى تثير فى الطفل مختلف الانفعالات . وعندما تفرغ جعبة الخال كان يلجأ إلى معاودة القراءة فى كتب التاريخ بحثاً عن مواد يصوغها قصصاً تروق لصديقه الصغير . ولاحظ أن قصصه تنطبع فى ذهن الطفل . وأنه يعيدها بعد سماعها بأدق تفاصيلها وربما بنفس عباراتها وكلماتها ، مما دعاه إلى العناية بانتقاء الألفاظ التى يريدها أن تعلق بذاكرته . وأصبح يشعر بأنه كما يؤثر فى الطفل ، فإن الطفل يؤثر فيه . وأنهما معاً يتبادلان المعرفة ، كلٌّ عن طريق صاحبه . فكما وجد الطفل لذة وفائدة فى الاستماع إلى روايات خاله ، وجد الخال فى ابن شقيقته مجالاً خصباً للتحليل والدراسة ، كشف له عن الكثير مما كان يجهل عن طباع الأطفال وعقليتهم ومناحى تفكيرهم ، ومدى العذوبة التى تبدو فى براءتهم .

ولقد كان يعجب وهو ينظر إلى عيوب الطفل من خلال تلك البراءة كيف بها قد انقلبت إلى صفات حميدة . كانت مناورات الطفل ومكره تعتبر فى رأيه تفتحاً لحياة يقظة ، وباكورة لذهن متوقد الذكاء كما كانت ثرثرته ولغوه بشيراً بما سيكون عليه من فصاحة وذلاقة لسان .

انصرافه من محل العصير ومعه الأستاذ البرديسى . . صديقه الجديد . . الذى يحمل له كل تقدير وإعجاب بعد أن رأى كيف أنه جاد بكل ما يملك فى قيامه بواجب الضيافة نحو زميل قديم . . زميل عديم الوفاء لا يتذكر زملاء الدراسة وإخوان الطفولة والشباب . وخرج من المقارنة بأن البرديسى أفضل منه ، وأحفظ لدواعى الصداقة والزمالة . وأن من واجبه أن يعمل على استدامة العلاقة التى تجددت بينهما ، تكفيراً عن جحوده ونسيانه .

وهكذا توطدت الصداقة بينهما . . .

وبينما الأستاذ طاهر يسعد فى تأملاته بذكرياته عن صديقه البرديسى وعن الحادث الذى جمع بينهما ، مرق القطار من محطة بنها ، وهو ينظر إليها شاخصاً ، ويأبى فى ترفعه ، وهو القطار السريع ، أن يشرفها بوقفة قصيرة . . وهنا بدأت خواطر الأستاذ طاهر ، وقد قربت المسافة إلى طنطا ، تنصرف عن البرديسى ، وتتجه نحو شقيقته وعائلتها الصغيرة ، خصوصاً إلى ابنها طاهر . . ابنها الوحيد الذى سمى على اسمه . .

* * *

وكان لشقيقته المكان الأول من قلبه . ولكنه كان يشعر فى كثير من الأحيان بأن الطفل يشاركها فى هذا المكان . بل ينافسها عليه منافسة شديدة . حتى لقد أصبح ، بذكائه وخفة روحه ، شغله الشاغل . كان يحرص على تعرف اتجاهاته وميوله . ويبادر بإرضائها وتحقيقها

عن طريق الهدايا التى يقدمها إليه . وكان الطفل محباً للاستطلاع ، مشغوفاً بالمعرفة ، لا يمل من سماع القصص والحكايات ، ويجد لذة خاصة فى الاستماع إلى روايات خاله . كما يجد الخال سعادة كبيرة فى هذا الامتياز الذى خصه به ابن شقيقته . فيندفع فى تخيل الغريب من القصص الخرافية التى تثير فى الطفل مختلف الانفعالات . وعندما تفرغ جعبة الخال كان يلجأ إلى معاودة القراءة فى كتب التاريخ بحثاً عن مواد يصوغها قصصاً تروق لصديقه الصغير . ولاحظ أن قصصه تنطبع فى ذهن الطفل . وأنه يعيدها بعد سماعها بأدق تفاصيلها وربما بنفس عباراتها وكلماتها . مما دعاه إلى العناية بانتقاء الألفاظ التى يريدها أن تعلق بذاكرته . وأصبح يشعر بأنه كما يؤثر فى الطفل ، فإن الطفل يؤثر فيه . وأنهما معاً يتبادلان المعرفة ، كلٌّ عن طريق صاحبه . فكما وجد الطفل لذة وفائدة فى الاستماع إلى روايات خاله ، وجد الخال فى ابن شقيقته مجالاً خصباً للتحليل والدراسة ، كشف له عن الكثير مما كان يجهل عن طباع الأطفال وعقليتهم ومناحى تفكيرهم ، ومدى العذوبة التى تبدو فى براءتهم .

ولقد كان يعجب وهو ينظر إلى عيوب الطفل من خلال تلك البراءة كيف بها قد انقلبت إلى صفات حميدة . كانت مناورات الطفل ومكره تعتبر فى رأيه تفتحاً لحياة يقظة ، وباكورة لذهن متوقد الذكاء كما كانت ثرثرته ولغوه بشيراً بما سيكون عليه من فصاحة وذلاقة لسان .

أما عناده ، فهو دليل صمود ومثابرة ، يكشف عما يكمن وراءه من شخصية قوية وقادرة .

واستمر الخال يدرس بهذه المقاييس شخصية ابن شقيقته . حتى الأنانية والانتهازية لم يكن يرى فيهما أكثر من دليل على حب التملك ، يشير إلى ما يغلب على طباع الطفل من اتجاهات عملية ، من الخير أن يعمل على تنميتها بتشجيعه على الادخار والتوفير ، ولقد قويت هذه الفكرة فى نفسه ، فحرص على أن يبحث عن قطع العملة الفضية الجديدة ، يقتنيها قبل قدومه فى كل زيارة ، لتكون من بين هداياه لابن شقيقته . خصوصاً القطع التى تصدرها الحكومة تمجيداً للمناسبات القومية الهامة ، مثل عيد الجلاء ، أو تأميم قناة السويس ، أو بدء العمل فى مشروع السد العالى . .

وفى هذه الزيارة التى نتحدث الآن عنها ، كان فخوراً بأن يحمل للطفل بعض فئات من القطع التذكارية التى صدرت بمناسبة افتتاح مجلس الأمة فى (يوليو — تموز ١٩٦٠) وعليها قبة البرلمان ، تشع منها أضواء الحرية والوحدة — الوحدة بين مصر وسوريا — وكان من بينها قطعة من ذات الخمسين قرشاً ، ينتظر بفارغ الصبر لحظة وصوله إلى منزل شقيقته لكى يقدمها إلى الطفل ، وينعم بمرآه وبمبلغ أثرها عليه .

وأخيراً وصل به القطار إلى طنطا . ووصل إلى منزل شقيقته .

وقدم القطعة الفضية للطفل . ووقف سعيداً يرقب انفعالاته . وما كان أشد عجبه ، وقد رآه ، بعد فحصها بدقة ، يضربها ضربات متوالية عنيفة على منضدة أمامه ، وهو سعيد بسماع رنينها . .

وكانت تلك هى المرة الأولى ، التى يرى فيها طفلاً فى الرابعة من عمره ، فى مثل هذا الموقف الساخر . . فلم يتمالك أن قال لوالده ، وهو يضحك :

— ماذا جرى له ؟ ! لم أره يفعل ذلك من قبل !

فضحك والد الطفل وهو يقول :

— أغلب الظن أنه سيظل يفعله فى المستقبل ، بعد أن شرحت له مختلف الطرق للتمييز بين العملة الصحيحة والعملة المزيفة !

— ولماذا كل هذا العنت ؟ !

— بسبب قصة كنت أرويها لوالدته . وكان إلى جانبنا يلهو ويلعب ، وفى نفس الوقت كان يلقى بأذنه إلينا ، ونحن لا نعلم !

— قصة أثرت عليه كل هذا التأثير !

— أثرت علىّ أنا الآخر تأثيراً أشد . . عرفتنى بإنسان من أنبل من صادفنى فى حياتى . .

— من هو ؟ ! أرجو أن تتاح الفرصة لأتعرف على هذا الشخص النبيل . .

واستطرد الزوج :

— أتذكر عندما كنت فى زيارتى الأخيرة لوالدى ؟

— نعم أذكر !

— وأنا فى عودتى من زيارته ، فى طريقى للسفر إلى طنطا .. مررت فى ميدان السيدة زينب بمحل يبيع عصير القصب . واشتهت نفسى بعضاً منه . . وبينما أنا مستمتع بشربه ، وإذا بشاب يتقدم إلىّ فجأة .. زميل قديم من زملاء المدرسة .. عرفنى بنفسه . . وأنا لا أذكر أنى أعرفه . . وأصر على الدفع . . على أن أكون ضيفه . . !

وهنا خطر السيد البرديسى فجأة على ذهن الأستاذ طاهر ، فقاطع زوج شقيقته قائلا ، كما لوكان يكمل روايته :

— وأخرج هذا الزميل قطعة فضية من فئة نصف الريال .. ودفع بها إلى صاحب المحل . .

— كيف عرفت ؟ !

وتجاهل الأستاذ طاهر هذا السؤال ، واستمر فى روايته :

— وقال صاحب المحل إنها مزيّفة

— من قال لك ؟

واستمر « طاهر » فى كلامه ، وهو يلاحظ علامات الحيرة والدهشة على وجه ابن عمه :

— وطلب البائع غيرها . . ولكنها كانت الوحيدة فى جيب صاحبها ! وبينما هو يتظاهر بالغفلة فى البحث عن سواها . . قدمت أنت واحدة غيرها لصاحب المحل . . .

وقاطعه ابن عمه ، وهو فى حيرة من أمره :

— هل قصت عليك شقيقتك القصة ؟

— وهل من المعقول ، ياسيادة النائب أن يتسع لها وقتها ، وقد حضرت على التوّ من سفرى ، لتفضى إلىّ بكل ذلك ! ولتقول لى أيضاً إن هذا الصديق هو الأستاذ الظريف أحمد البرديسى . . وإنه كان زميلاً لك بالمدرسة .. !

وهنا بدأت الحقيقة تتضح لزوج الأخت عندما قال :

— وهل أكد لك أنت أيضاً نفس الشىء ؟ !

وبدأت تتيقظ فيه حاسة وكيل النيابة ومهارته التى عرف بها فى قفش المتهمين ، وحققت له النجاح فى مهنته ، وذلك عندما سأله « طاهر » :

— ولكن كيف عرف البرديسى أسماءنا ؟

فأخذ يفكر بدقة المحقق الحصيف :

— لابد أن يكون قد لاحظ كثرة ترددنا على الحىّ فى زيارة والدى . . وقام بعمل تحريات !

فضحك طاهر قائلا :

— ولكنها تحريات تنقصها الدقة !

فرد ضاحكاً :

— كأنك تريد من المسكين ، على قصر باعه ، أن يكون خبيراً

من رجال المباحث.. لقد كان غرضه بسيطاً .. إشباعُ رغبة مسيطرة عليه فى توسيع شبكة أصدقائه ومعارفه . . وكانت طريقته إلى ذلك ساذجة . . لا تؤذى أحداً . . اكتفى فيها بما وصل إليه من تحريات، لم يفكر ولم يجد داعياً لاستيفائها . .

واستطرد فى مرح :

— ولهذا السبب لم يفطن إلى صلة القرابة التى تجمعنا ، كما نسى أننا ، أنت وأنا ، لم نكن أبداً فى مدرسة واحدة . . . المهم أنه ، رغم تغفيله ، من الشخصيات الطريفة . . . !

وشاركه الأستاذ « طاهر » فى مرحه ، وهو يقول فى سخرية :

— على كل حال إنه ، والحمد لله ، ليس هو وحده المغفل !

وصاح الزوج :

— ماذا تقصد ؟

— أقصد أن الإنسان يشعر بالراحة والعزاء ، عندما يجد أمامه من هو أكثر منه تغفيلاً !

وهنا رد الزوج بنفس النغمة الساخرة :

— هذا صحيح ! وهو نفس شعورى وأنا أراك ماثلا أمامى !

وفى غمرة الضحك ، الذى شاركت فيه الزوجة ، وقع نظر الأستاذ طاهر على ابن شقيقته الصغير وهو يحاول جاهداً أن يلوى القطعة الفضية التى قدمها له بأنامله الرقيقة ، ثم يضعها بين أسنانه ، ويعمل

فى عضّها . فقال لوالد الطفل ضاحكاً :

— ماذا يفعل ثانية ؟

— يريد أن يتأكد أن أحداً غير البرديسى لم يخدعك !

فقال الخال مازحاً :

— ولد ناجح ! . . طالع لخاله !

ورد الأب وهو يتظاهر بالاعتزاز :

— بالعكس . . الولد طالع لى أنا . . أنا أبوه . .

فعقّب طاهر وهو يمزح :

— هل أنت متأكد مما تقول ؟ !

وهنا تدخلت الزوجة ، وهى تتظاهر بالانزعاج :

— لا والنبى ياطاهر . . حاسب على كلامك . . أنا أختك وأشهد أن الولد ابن حلال مصفّى !

وثنت ضاحكة :

— لكن الحقيقة أنه . . لا هو طالع له ، ولا هو طالع لك . . من حسن الحظ أنه طالع لأمّه . .

واستطردت فى ضحكها هازئة بهما معاً :

— على الأقل يبقى واحد ناصح فى العائلة !!

الحلم والحقيقة

الحلم والحقيقة

كنت والأستاذ « أحمد ناجى » المحامى بالإسكندرية جالسين فى شرفة فندق « سميراميس » هرباً من الجو الذى كان خانقاً فى هذا المساء من شهر أغسطس ، فى الفترة التى تعارفنا على أن نطلق عليها « زمنة النيل » .

وفجأة قال لى ، وهو يمسح العرق المنصبب على جبينه :

— لهذا الفندق منزلة خاصة فى نفسى . من عادتى أن أقيم به كلما قدمت إلى القاهرة . . . أرتاح إليه . . وأرى فيه نوعاً من الأصالة والنبل ، يوافقان مزاجى ، ويشبعان رغبتى فى الاستمتاع بإقامة مريحة !

فقاطعته مداعباً :

— ولماذا لا تكون صريحاً ، وتقول إن الإقامة بهذا الفندق الكبير إعلان عن نفسك يكسبك ثقة العملاء ويزيد من سخائهم فى تقدير أتعابك !

فرد ضاحكاً :

— لقد أشرت إلى حقيقة لم أكن فى الواقع أهدف إليها . . ولكن تعلقى بهذا الفندق يرجع إلى أسباب خاصه . أهم بكثير مما ذكرت . .

يأترجع إلى ذكرى قديمة ، لعلها أحلى وأعقد ذكريات حياتى .

فقظ كلامه غريزة حب الاستطلاع فى نفسى ، ورجوت أن يكون بداية لقصة طريفة نقطع بها الوقت فى قيظ هذا المساء ، فقلت أستدرجه :

— لعلها ذكرى صديقة قديمة باعدت الأيام بينك وبينها ؟

فأجاب ، وقد أخذت الذكريات تتوارد على خاطره :

— ذكرى صديقة قديمة لم أرها فى حياتى إلاّ ثلاث مرات . كانت كل واحدة منها مفاجأة أدعى إلى العجب والغرابة من سا يقتها .

وجمع شتات أفكاره واستمر يقول :

— كنا فى عام ١٩٤٢ والحرب يومئذ على أشدها . وكنت قد فرغت من شئون مكتبى . وأخذت طريق إلى المنزل . وكان الوقت قد تأخر بى قليلا . وفوجئت بصفارات الإنذار وقد بدأت تدوى ، و بالأنوار وقد أطفئت فى البيوت والشوارع . . . وسكنت الحركة . وهرول الناس إلى المخابئ ، بقدر ما أسعفتهم الهرولة . وتجمدت السيارات فى أماكنها بلا حركة . بعد أن خمد الضياء الباهت الذى كان ينبعث من مصابيحها المطموسة بذلك اللون الأزرق ، الذى كنت — ولم أزل — أتطير منه .

وقطع حديثه معلقاً :

— لقد أصبحت أكره هذا اللون ، فإنى أراه يقترن فى رؤيتى له بلون « النيلة » الذى تصبغ به بعض القرويات وجوههن وأيديهن فى

مناسبات الحزن والحداد . ولا أستطيع أن أمنع نفسى من الربط بينه وهو يطلى مصابيح السيارات وقت الغارة ، وبينه ، وهو يشوّه وجوه هؤلاء القرويات ، وأن أرى فيه ، فى الحالين ، رمزاً إلى كوارث قد وقعت فعلاً . . . أو نذيراً بأخرى توشك أن تقع !

فأردفت مبتسماً :

— وهو لون يؤخذ فرق ذلك من محلول « النيلة » التى اعتدنا أن نشير بهـا إلى الفشل وخيبة الأمل عندما نبتهل إلى الله فى دعواتنا أن يجعلها من نصيب أعدائنا . . !

فضحك بدوره وعاد إلى حديثه يقول :

— وزاد من كثافة الظلام أن الليلة لم تكن من الليالى القمرية . فبدا منظر المدينة معتماً ، يقبض الصدر بوحشته ، وبما يسودها من فراغ أشبه هو الآخر بفراغ الموت وسكونه . بينما أزيز الطائرات يصل إلى آذاننا من بعيد كأصوات النادبات ليكمل صورة تلك الجنازة العامة التى لم نكن لنستطيع فيها أن نميّز بين الأحياء منا والأموات . فقد أصبحت حياتنا معلقة بكفة القدر ، أو رهناً بقذيفة من إحدى هذه الطائرات ، لا ندرى بعدها هل يجرى علينا الموت أم يكتب لنـا البقاء . . ونحن فى هذا كله نسائل أنفسنا عن هذه الطائرات . . وعن العدو المغير . . هل هو من الألمان أم من الإيطاليين . . . ونتمنى فى حرصنا على الحياة ، أن يكون الهجوم من الألمان !! فقد علمتنا

السوابق أنهم أحكم من الإيطاليين تصويباً نحو الهدف ، وأقدر منهم على تجنب إصابة المدنيين ، وكنت ألقى بنظرى إلى السماء ، وأشاهد الطائرات المغيرة ، وهى تحلق فوق المدينة ، وتلقى إلى الأرض بأضواء أشبه بالذريات أو عناقيد العنب تنير أمامها السبيل لتتبين مواقع أهدافها وتحكم إلقاء القذائف عليها . . كنت أشاهد هذا الهول ، وأنا أعجب لما عليه نفسى من صفاء أمام ما أواجه من خطر ، أعرف أن لا حيلة لى فى دفعه إلاّ بالاطمئنان إلى لطف الله ورحمته . . كنت فى تلك اللحظات أفكر فيما كانت المدينة كلها تتحدث عنه من غارة الأمس التى قامت بها الطائرات الإيطالية . . وكيف أن إحدى هذه الطائرات فى ذعرها مما لاقت من المدافع المضادة للغارات ، لم تجد مفرًّا من تخفيف حملها إلاّ بإلقاء قنبلة كبيرة . . ألقتها كما اتفق ، وحيثما كان ، ولاذت بالفرار . وشاءت رحمة الله بالمدينة وبأهلها أن تسقط القنبلة بجدار ضريح سيدى أبى الدرداء . . وتستقر فى رحابه على بطنها كالقتيل ، دون أن تنفجر . . !

ومن المفارقات العجيبة أن القنبلة الجبارة التى كان من المقدر لها ، وقد سقطت فى قلب المدينة ، أن تمزق الناس أشلاءً متناثرة ، قد حققت بعدم انفجارها معجزة جمعت المصريين والأجانب ، وألفت بين قلوبهم ، على مختلف أجناسهم ومعتقداتهم ، حول مقام أبى الدرداء . وهم يؤكدون جميعاً أنها من كرامات ولىّ الله ، عليهم أن يتبركوا به من

أجلها . . وأن يقدموا له النذور !

واستطرد الأستاذ « ناجى » يقول :

— وبينما أنا غارق فى تأملاتى ، أجد بعض ماكنت فى حاجة إليه من أمان واطمئنان ، إذا بقنبلة تسقط علىّ !

وتوقف عن حديثه برهة ، وهو ينظر إلىّ ساخراً من ذهولى واستنكارى ، وأنا أقول مدعوراً غير مصدق :

— قنبلة ! سقطت عليك أنت !

وإذا به يستأنف ضاحكاً ومؤكداً :

— نعم ! قنبلة !

وتريث برهة أخرى ثم عاد يقول :

— قنبلة . . قنبلة آدمية . . من بنات حواء . . تتعلق بذراعى فجأة ، وهى لاهثة الأنفاس ، يكاد الرعب يذهب بلبها ، يبدو عليها الفزع واضحاً على الرغم مما يلفها ويلفنى من ظلام . وهى تقول فى كلمات متقطعة ، وبلغة فرنسية فيها لكنة أجنبية غير خافية :

— سيدى . . سيدى . . أرجوك . . من فضلك . . !

فالتفت إليها مضطرباً ومستفهما دون أن أتكلم . . بينما انقضت صاحبتى على ذراعى متعلقة به . وقالت مستعطفة :

— أرجوك اسمح لى أن أرافقك هكذا بعض الطريق . . تظاهر بأنك تعرفنى . . بأننا أصدقاء قدماء . . .

ولا أخفى عليك أنه قد جال فى خاطرى أنها ربما تكون امرأة سهلة من بنات الليل تلعب علىّ لعبة قديمة ، ولكنى ما لبثت إزاء ما رأيت من اضطرابها أن تريثت فى حكمى ، وجعلت أنظر إليها مستفهماً ، بينما هى تقول :

— لا تنظر خلفك ، هناك جنديان بريطانيان قد ضيّقا علىّ المسالك ، ولم أجد وسيلة للتخلص منهما إلاّ بتوريطك معى !

ووجدت نفسى أقول لها فى هدوء :

— لا بأس عليك ياسيدتى . . خفّى من روعك واعتمدى علىّ .

ولكنى مع ذلك لم أتمالك من إلقاء نظرة إلى الوراء فوجدت عملاقين من الجنود الأستراليين وقد بدآ يديران لنا ظهريهما ، بعد أن يئسا من صيدهما الثمين ، فراحا ينشدان غيره فى الظلام . . كل ذلك وأنا أعجب من غريزة البهيم فى الإنسان ، لا تريد أن تهجع حتى فى تلك اللحظات الكئيبة والموت يحوم فوق رءوسنا من الفضاء !

وواصلت وزميلتى السير فى صمت . . لا ندرى ما نقول . حتى وصلنا إلى ملتقى شارع كنيسة دبانة بشارع سعد زغلول . . وهنا أخذت السيدة تسترد كيانها ، وبدأ الهدوء يعاودها ، فمدت إلىّ يداً شاكرة ، وانعطفت إلى شارع كنيسة دبانة ، بعد أن احتواها الظلام . أما أنا فلم أر الكثير منها . وإن كنت قدرت أنها لا تخلو من جمال .

وصمت الأستاذ « ناجى » برهة يستجمع فيها ذكرياته . ووقع

نظره على كوب من عصير الليمون أمامه فوق المائدة ، فامتدت يده إليه ، وأخذ يرتشف منه ما يروى ظمأه . ثم عاد يقول :

— ومرّت الأيام ، ولم تعد فتاة الغارة عندى ، أكثر من ذكرى عاطفية رقيقة . . كنت أفكر فيها أحياناً ، ولكن بغير أمل . ولم أكن أتصور أن الأيام ستجمع بيننا مرة ثانية . ولكنى كنت فى هذا التقدير مخطئاً . . فقد قضت الظروف أن أصل من الإسكندرية إلى القاهرة فى بعض عملى . وكنت على ميعاد مع أحد عملائى فى نفس هذا الفندق . وقد وجدت العميل فى انتظارى . وفى نفس الشرفة التى نجلس الآن فيها وكان فى صحبته فتاة أنيقة . ولم أدهش لذلك ، فقد كان صاحبى من الشبان الذين يقبلون على الحياة ، ويعرفون كيف يستمتعون بها . . . قدمنى إلى رفيقته التى استقبلتنى فى أول الأمر بتلك الحفاوة المتحفظة الموزونة بميزان التقاليد الاجتماعية ، بغير مبالغة فى الإقبال أو إهمال فيه . وهى الحفاوة التى نعبر عنها عادة بالحفاوة المؤدبة . . ولكنها ما لبثت بعد قليل أن خرجت عن هذا التحفظ ، وصاحت قائلة :

— ألا تعرفنى ؟

وبدت لهجتها مألوفة لدىّ ، ولكنى أجبت مبتسماً :

— كنت أتمنى ذلك ولكنى لا أذكر !

فقالت شبه معاتبة :

— لم أكن أعرف أنى مررت إلى هذا الحد غير ملحوظة لديك . .

مع أن مقابلتنا كانت فى ظروف عاصفة !

فبدا علىّ الحرج وقلت معتذراً :

— ربما كان الذنب فى نسيانى يرجع إلى تلك الظروف العاصفة..

— ولكنها مع ذلك لم تستطع أن تمحوك من ذاكرتى . . بعد أن أدّيت لى خدمة كبيرة . . كنت فيها رجلاً كريماً حقّاً . .

وعادت إلى ذاكرتى تلك اللكنة الأجنبية التى كانت تخالط لغتها الفرنسية ، وصحت بدورى :

— هل أنت فتاة الغارة ؟!

وإذا بها تضحك قائلة :

— نعم أنا فتاة الغارة التى تعلقت بذراعك كالمجنونة !

كل هذا وعميلى فى أثناء الحديث نهب لحب الاستطلاع ، يتحرق شوقاً إلى الوقوف على قصتنا . فبادرت بإشباع رغبته . بأن قصصت عليه قصة تلك الليلة التى جمعت بيننا اجتماعاً عاصفاً وعابراً .

ولست أدرى لماذا تبادر إلى خاطرى أن الرجل يضيق ذرعاً بالفتاة كما لو كان قد حاول أن يدفع بما بينهما من علاقة إلى مدى لم ترض عنه صاحبته . وأنه قد يئس من تحقيق مآربه معها . وتأكدت ظنونى عندما قال :

— ما دمتما صديقين قديمين فلا حرج إذن من أن أدعكما تنعمان برؤية العاصمة معاً فى هذه الليلة الجميلة . . وأن تقبلا عذرى . .

فأنا الآن على ميعاد آخر !

وتركنا وانصرف . . .

وعلمت من « ليليان » وهذا هو اسمها الذى أخبرتنى به ، أنها من بنات يوغوسلافيا ، وفدت على مصر مع والدتها بعد أن رأت جحافل الألمان تدك معاقل بلدها ، وشاهدت جحيم الحرب يلتهم بقية عائلتها فقد مات أبوها فى المقاومه الشعبية . وسبقه إلى الموت شقيقان قضيا نحبهما فى ميدان القتال . . ولم يبق لها إلاّ والدة مسنة . جاءت بها إلى مصر . . مصر التى كانت على العهد بها كريمة مضيافة لهؤلاء الذين نزحوا إليها ، إلى جانب الحكومات الحرة بالمنفى ، التى اتخذت من القاهرة مقراً لها بعد أن أسقطت جيوش النازيين العديد من النظم والعروش التى تهاوت التيجان عن رءوس أصحابها . ومع ذلك ظلوا فى منفاهم يقاومون فى سبيل استرجاعها واسترجاع أوطانهم معها . وكانت « ليليان » واحدة من الزهيرات النضيرات التى وجدت فى ربوع مصر مكاناً آمناً مطمئناً يتيح لها أن تنشر عبيرها وأن تعرض مفاتن جمالها .

وأعترف خجلا ، أن ظروفها القاسية قد أغرتنى على أن أحاول معها ما حاول عميلى من قبل . ولكنها كانت فى كل مرة تصدنى بقولها إنها كالنماذج التى تختارها المحال التجارية من بين ثمين مقتنياتها وتعرضها فى واجهاتها بعد أن تكتب تحتها بالخط العريض « نماذج للعرض فقط وليست للبيع » . . !

وأطلت إقامتى فى القاهرة بقدر ما أستطيع استمتاعاً بالمعروض من مفاتن « ليليان » وأملاً فى اقتطاف بعضه ، ولكنى فى النهاية يئست ، كما يئس صاحبى . . وسافرت إلى الإسكندرية ، دون أن أعرف عنها أكثر من اسمها . . وما قصّته علىّ من تاريخ مأساتها . . .

وأخذ الأستاذ « ناجى » يتابع حديثه بعد تفكير :

— وكانت تلك هى المرة الثانية التى تقابلنا فيها . وكنت أظنها الأخيرة . ولكن الأقدار قد شاءت فى سخريتها أن تجمع بيننا مرة ثالثة تفوق فى غرابة ظروفها ما كان فى المناسبتين السابقتين من مفاجآت لم تخطر لنا على بال . . . وصلت إلى القاهرة مرة أخرى لداع من دواعى العمل ، وبعد مضى شهور من المقابلة الثانية . وفى خروجى من المحطة قابلتها فى البهو الكبير ، بجانب الساعة التى تتصدره ، ومعها جمع من الناس كانت تتوسطهم ، هى ورجل بدين ، يبدو فى نهاية العقد الرابع من عمره ، أو ربما يكون قد تجاوزه بقليل . وكان الرجل غارقاً فى السعادة . تفصح ابتسامته العريضة عن هناء شخص تحققت أمانيه ، والسرور من حوله يعمّ الجميع . . فيما عداها هى . . ! كانت تبدو فى جديّة نظراتها وصرامتها بعيدة عن القوم . . ووقع نظرها علىّ ، وأنا أجتاز طريقى إلى باب الخروج . وإذا بها تترك من حولها وتتقدم مسرعة إلىّ وقالت بدون تحية أو مقدمات :

— أرجوك انتظارى فى مقهى المحطة . . سأعود إليك بعد دقائق . .

وآمل أن أجدك . . فإنى فى حاجة إليك .

وذهبت عنى مطمئنة وهى ترانى أعود أدراجى ، وأتجه نحو المقهى . وكما وعدت ، رأيتها مقبلة علىّ وابتسامتها تنير ظلام هذا المقهى الكئيب الذى يحتاج إلى الإضاءة فى كل ساعات النهار . وألقت بنفسها إلى جانبى وهى تتنفس أنفاس الراحة . . راحة من زال عنه حمل ثقيل !

وقلت لها ، قبل أن تسترد أنفاسها :

— كأنكم كنتم فى حفلة ؟ !

فأجابت باسمة :

— لقد صدق ظنك . . والحفلة الليلة كانت حفلة خطوبتى !

فضحكت قائلا فى دهشة :

— مبروك ! ومن هو الرجل السعيد ؟ !

وهنا نظرت إلىّ فى تردد ، وهى تسألنى :

— هل رأيت هذا الرجل البدين ؟

فقلت فى سخرية لم أستطع مغالبتها :

— وهل كان من الممكن أن لا أراه ؟

فعلت قسماتها سخرية حزينة وقالت :

— إنه خطيبى !

فصحت كالمذعور :

— خطيبك ؟ وهل كنت تعرفين الرجل من قبل ؟

— إنه أحد رجال الأعمال من بنى وطنى الذين يقيمون فى بورسعيد، وقد كنا فى وداعه بالمحطة قبل سفره بعد أن انتهت حفلة الخطوبة !

ولست أدرى لماذا شعرت بالغيرة نحو هذا الرجل الذى لا أعرفه . . أو إذا شئت بشىء من البغض والحسد ، وسألتها فى برود لا يخلو من إشفاق :

— هل تحبينه ؟

— ولدهشتى أجابت من غير تردد :

— إنى أكرهه !

— ولماذا إذن تتزوجينه ؟

— لأنه غنى . . وأنا فقيرة . . ومعنى أمٌّ علىّ أن أعولها . . إنه الفقر . . وسلطانه على الناس جميعاً ، وفى كل زمان ومكان ، واحدٌ لا يتغير .

فقلت مبتسماً فى أسف :

— ومع ذلك فقد كنت تفاخرين دائما بأنك نموذج للعرض فقط . . وليس للبيع !

فأجابت متحدية :

— وما زلت كذلك . . لم أعرض شيئا للبيع . . ولكن الرجل وجد شيئًا يستحق الشراء . . . فاشتراه !

وعقبت فى كثير من الحزم :

— ومع ذلك فقد صممت على أن تصل إليه البضاعة التى اشتراها معطوبة ! !

— ماذا بالله عليك تقصدين ؟ ! هل تنوين الغشّ فى الصفقة ؟ هل عزمتِ على إيفاد واحدة غيرك تنوب عنك فى زواجه ؟

ولشد ما كانت دهشتى عندما سمعتها تقول وهى جادة :

— أقصد أكثر من ذلك ! . . لقد نذرت أن أخونه الليلة . . ومع أول صديق أقابله . .

وثنت ضاحكة :

— ومن حسن حظى أنك كنت أنت ذلك الصديق . . ! فأنا الليلة لك ! !

والتفت إلىّ الأستاذ ناجى بعد لحظة من الصمت ، ثم قال :

— ولقد برت بوعدها . . وكانت فيه سخيّة أيّما سخاء !

ثم استمر فى روايته يقول :

— وفى الصباح استيقظت على حركة غير مألوفة . مددت يدى إلى جانبى وإذا بى أجد مكانها خاليًا . . فاعتدلت مذعوراً فى فراشى وفجأة وقع نظرى عليها وهى ترتدى ملابسها .

فقلت مبتسماً :

– إلى أين ؟

وجاءنى صوتها يقول :

– أظن أنه يحسن أن أنصرف الآن !

– ألا نتناول طعام الغداء معاً ؟

– لا أظن أنى أستطيع .

– ومتى أراك إذن ؟

وهنا أقبلت علىّ باسمة فى حنان . وكانت قد فرغت من ارتداء ملابسها . فجلست على حافة السرير وقالت فى جدّ :

– أعتقد أنه من الخير أن لا نتقابل بعد الآن !

وكانت صدمة لم أستطع الكلام معهـا . أما هى فاستمرت تقول :

– لقد بلغنا بالأمس الذروة فيما أعطى كل منـا لصاحبه من سعادة . ولذلك فقد قررت أن لا نتقابل بعد اليوم !

فظننتها تمزح ، لولا ما بدا على قسماتها من الجد والتصميم ، ومع ذلك قلت لهـا :

– كنت أظن أن هذا أدعى إلى استدامة العلاقة ؟

وكم كانت دهشتى عند ما أجابت :

– لقد فكرت . . وفكرت طويلا فى ليلتنا الماضية . وانتهيت ، ولعلك توافقنى ، على أنها ليلة لا يمكن أن تعاد ! ! لقد وصلنا فيها

إلى الكمال دفعة واحدة . . ومن العبث أن نحاول تكرارها . . فالكمال لا يكون إلا مرة وأنا أخشى الفشل فى الوصول إليه مرة أخرى . . وأريد هذه الليلة وحيدة قائمة بذاتها دون تشويه ، لتظل فى حياتى وفى حياتك خالدة بانفرادها . . ولتظل ذكراك فى قلبى مقترنة بها وحدها ولهذا أرجوك أن لا تحاول بعد اليوم أن تقابلنى ! ! كما أرجو أن لا تحاول الآن وداعى . . فأنا أكره الوداع فى تلك اللحظة من عمرنا التى أريدها أكثر من غيرها نبضاً بالحياة . . .

وهكذا تركتها تنصرف فى هدوء ، بعد أن ركبنى شيطان الغرور وأنا أسمع كلامها فى نشوة غريبة من الرضا عن نفسى . لم أجادل . فقد استهوتنى فكرتهـا . وتراءت لى فى تلك اللحظة رائعة جميلة كصاحبتها .

وفكر قليلا ثم قال :

– لقد كانت ليلتنا حقيقة أردناها على أن تكون حلماً . . حتى إنى لم أعد أدرى هل كان الذى ارتويت منه ماءً أم سراباً . . فقد ظلت « ليليان » فى ذاكرتى حقيقة تبدو حلماً . . وحلماً يبدو حقيقة . . وبذلك استطاعت أن تجعل ليلتها معى وحيـدة قائمة بذاتها على الأقل فى حياتى !

– وحياتها ؟ !

– لا أدرى ؟

– ألم تحاول السعى إلى لقائها ؟

– أبداً .

– لمـــاذا ؟

– لأنى أخشى على حلمى أن تذهب به الحقيقة . . وأنا أريد الحلم والحقيقة معاً .

قلب وبنك

قلب . . وبنك

عند ما دخلت على صديقى الأستاذ المحامى الكبير . . كان واقفاً أمام مكتبه وبيده خطاب يمعن فى قراءته .

لم يكن وحيداً بالغرفة . كان معه كهل فى العقد الخامس من عمره ، أو هكذا تراءى لى الرجل فى ضموره وتحول بدنه ، وفى الخيوط البيضاء التى غزت شعر رأسه . كان منهالكاً على نفسه ، كل ما فيه ينم عما يعانيه من تعب وانكسار ورقة حال ، فيما عدا تلك النظرة البرّاقة التى كان يتطلع بها إلى المحامى الكبير وهو ماضٍ فيما هو منهمك فيه من قراءة . . .

ومع ذلك فقد جال بخاطرى أن بريق تلك النظرة . قد لا يكون صادراً عن صفاء المعدن الذى انبعثت منه ، بقدر ما هو منعكس عن حالة نفسية قاسية تملكت الرجل ، واستبدت به ، حتى غدا من فرط قلقه واضطرابه ، يحدق فى وجه المحامى ، ويتابع ، فى إصرار ، ما يبدو على ملامحه من انفعالات يطمع فى أن يستشف منها بصيصاً من الأمل فى نتيجة موفقة للموضوع الذى جاء من أجله . . . وأغلب الظن أن الخطاب كان يتناوله . .

ولم يكن فى الواقع أى تعبير فى ملامح وجه المحامى يشى بما كانت

نفس الكهل تتلهف عليه من رجاء . كان وجهه فى صلابته وجموده يحمل على التشاؤم . وإن كنت قد شعرت بأن الكهل الذى أمامى يجاهد نفسه على رفض هذا الرأى ، ويحملها فى ذلك من عنت المغالطة ما يتحمله الغريق وهو يتعلق بعود القش طلباً للنجاة ، كلما تعلقت عيناه بهذا الخطاب الذى تقبض عليه أنامل المحامى . . .

وفى إشفاقى على الرجل ، كنت ألتمس له العذر فى تعلقه بأهداب الأمل الضعيف الذى يساور نفسه ، وهو يُمنّيها بأن الجمود الصارم على وجه المحا لا يعدو أن يكون نوعاً من الحيدة العاطفية التى تفرضها قواعد المهنة ، دون الوصول بها إلى حد التشاؤم . على أن هذه الحيدة ، وإن كانت أدعى إلى استبقاء قليل من الأمل فى نفس الرجل ، إلا أنها ، وأمام وجه المحامى ، الذى لم تكن تبدو على قسماته علامات يأس أو رجاء . . كانت تعذب الكهل ، وتضاعف من قلقه واضطرابه ، وتدفعه إلى القيام بحركات عصبية ، من الواضح أنه لم يكن يفطن لها ، وإلا لحاول التغلب عليها ، أو فى القليل . . الحد منها ، بدلاً من الاندفاع فيها بتلك المبالغة التى تكشف عن مبلغ قلقه وما يعلقه من أهمية على هذا الخطاب .

وكما لو كان المحامى طبيباً يعالج مريضاً استنفد معه كل وسائل العلاج ، ولم يبق له بعد ذلك من مُعين إلا عناية الله ورحمته ، التفت إلى الكهل الذى كان يترقبه بنظرات ضارعة ، وقال :

— هذا هو آخر ما نستطيع عمله . . والأمر بعد ذلك بيد الله . .

ورد العميل ، وهو لا يزال فى قلقه ولهفته :

— هل هناك من أمل فى استجابة البنك لهذا الخطاب ؟ . . . أرجوك أن تصارحنى يا أستاذ .

وأجاب المحامى وهو يحاول أن يبعث فى نفس الرجل رجاءً لم يكن ، فيما بدا ، يساعد كثيراً على الإيمان به .

— على المرء أن يسعى . . .

وتوقف لحظة ثم قال ، وهو يتكلف الابتسام :

— وليس عليه إدراك النجاح . . . المهم أن نسعى . .

فقال الآخر ، وقد اشتد به القلق ، وأورثه الاضطراب مزيداً من تلك العصبية التى لم يحاول إخفاءها :

ولكن يا أستاذ أملنا كله فيك . . وأنت تعلم أهمية الموضوع .

ورد المحامى فى هدوء :

— أنت ترى أنى فعلت كل ما فى وسعى . .

واستطرد كما لو كان فى موقف عزاء .

— ربنا يساعدك !

وصاح الكهل فى لهفة :

— وأنت ! !

ولم يتمالك المحامى من الابتسام وهو يقول مؤكداً :

— لقد فعلت ما أستطيع . .

واستمر وهو محتفظ بابتسامته :

— هل تظن « أنى مغسل وضامن جنة » . . هذا الخطاب هو سهمنا الأخير ، وأرجو أن تصيب به خيراً إن شاء الله .

ورد الرجل فى استسلام :

— نحن جميعاً مقدرون ما فعلت . . ولكن صاحب الحاجة أرعن . . فأرجو المعذرة . . ولك الشكر على كل حال .

وتناول من المحامى الخطاب الذى دارت المناقشة من حوله ، وذهب لتسليمه إلى البنك .

* * *

وبقيت وصاحبى وحيدين ، وإذا به يقول :

— ما أغرب الموت فى رحمته وقسوته . . إنه الحقيقة السافرة التى لا تعرف المواربة . . الحقيقة التى تكشف عن خفايا صاحبها بغير غطاء مهما طالت أثواب كفنه ، وتعددت طياتها . . تقدمه إلى الملأ عارياً . بما له ، وبما عليه . . حقيقة مهما بدت قاسية إلا أنها رحيمة فى عدالتها وإنصافها للناس جميعاً من غير إجحاف ولا مجاملة . . فكم للموت من مفاجآت ، بعضها ساخر ، وبعضها محزن أليم . . ولكن الموت لا يخجل بما فيها من سخرية وألم ، ما دامت تمثل واقع صاحبها تمثيلاً يقوم على الحق والصدق .

واستطرد بعد صمت :

— بعد الموت تبدو حقيقة الميت كما هى بدون طلاء . . . ينزاح القناع فجأة عن صفحة حياته ، بجوانبها الظاهرة والباطنة ، . . بجوانبها الخفية التى يحاول حجبها عن الناس ، ويجىء الموت فيميط اللثام عنها بغير تردد ولا استحياء لا محل لهما أمامه ، وهو الحق الذى طالما كشف عن أسرار ، لولاه لذهبت مع صاحبها إلى القبر ساخرة من دموع المشيعين . . . فكم من عظيم فى هذه الدنيا تضاءلت عظمته بعد الموت إلى حد يثير الرثاء ، فأصبح أهله ، وقد انفضح أمره ، يندبون فى جنازته ، موته وحياته ، على السواء . . . تقام الجنازة ، ويشتد العويل والنحيب . وبينما أكباد أهله تكاد تتفتت حسرة عليه ، وإذا بسيدة تدخل إلى المعمعة !! . . يرتفع صراخها ، ويعلو على صراخ أهل الميت ، كما لو كانت تريد أن تثبت لنفسها حقًّا فيه . . تدخل وذوو التأثم من صغارها يحومون حولها . . متعلقين بأذيالها ، ومشاركين فيما يسمعون من نحيب ، وهم لا يعرفون السبب الذى جاء بوالدهم ليلقى الموت فى هذا البيت الغريب ، ولا تلبث الحركة أن تخمد . . ! ويستولى على المأتم الوجوم . . ثم تسرى همسات خافتة بين المعزين . . . إنها الزوجة الثانية . . الزوجة التى أراد المرحوم أن يجدد بها شبابه . . إنها الضرة الجميلة . . . وهؤلاء هم أولاده منها . . .

وبذلك المشهد الساخر يرتفع الستار عن المفاجأة القاسية . . . وتتجه الأنظار إلى الزوجة الأولى . . . لترى وتحكم على تصرفاتها . . . أنظار

الإشفاق ، وأنظار التشفى . . وإذا بها ، بعد أن كانت فى حزنها على فقيدها الراحل ، تبغى الموت لتلحق به . تتجمد فجأة فى مكانها ، بعد أن تقاسمتها أحاسيس من الحيرة والبؤس والخجل والغضب . . . وبعد أن توقفت الدموع على خديها ، وانقلبت عاطفتها المشبوبة من الحزن على فقيدها الغالى . . إلى الحقد عليه ، وعلى الزوجة الثانية ، وعلى أولاده منها . . الذين سيشاركون مع أمهم فى الميراث . . ! إنها لم تعد تندب موته ، وإنما تندب الأيام التى عاشتها معه . . . مع هذا المنافق الذى يرقد مسجى على فراشه ينتظر الغسل قبل الكفن ، وهو لا يستحى من الموقف الفاجع الذى أوقفها ، وأوقف أولاده وأهله ، فيه . . . الموقف الذى لم يكن يجرؤ فى حياته ، على الرغم من شجاعته المزعومة ، على الكشف عنه . . ، وكأنما كان لا بد للموت من أن يجىء حتى تواتيه تلك الشجاعة للإعلان عما ظل خافياً ، وبتلك الصورة الفاجعة ، متيحاً بذلك الفرصة ، لكل من يريد التشفى ، ليسلخه بألسنة حداد . .

وهنا لم أتمالك من التعليق ضاحكا :

— مهلاً يا صديقى . . وهل يضير الشاة بعد الذبح أن تسلخ ؟ !

فضحك بدوره واستمر فى حديثه يقول :

— وآخر تنتهى جنازته بعد أن يتفنن الأهل فى الإعداد لها ، والإنفاق عليها بما يناسب مقامه الرفيع ! . . ويجىء وقت الحساب . ليس حساب الميت ، ولكن حساب تكاليف الجنازة ! ! . ويبدو المبلغ

باهظاً . ويبدأ كل فرد فى العائلة يحمل صاحبه مسئولية هذا الإسراف الذى دعت إليه المظاهر الكاذبة . . . وتزداد حدتهم عندما يتكشف الحال ، وإذا بالفقيد العزيز لم يترك قليلا ولا كثيراً . . . وأن لا شيخ تحت القبة ، كما كانوا يتوهمون . . . لقد استغرقت ثروته ديون لم تكن العائلة تدرى عنها شيئاً . . . ولم يكن من الحكمة إذن الاندفاع والمبالغة فى مصاريف الجنازة ، التى تبين ، بعد فوات الأوان ، أنها لا تتفق ومقتضى الحال . . !

واستطرد الأستاذ معلقاً :

— أمثال هؤلاء استمتعوا بحياة براقة جاء الموت فكشف عن جوانبها الخفية ، وإذا بهم فجأة ، وأمام الناس ، لا يستحقون ما عاشوا فيه من نعيم . . لقد استطاعوا أن يظلموا الحياة ، ولكن الموت أنصف تلك الحياة واقتص لها فى النهاية منهم .

وضحك فى حزن وهو يقول :

— ومن المتناقضات الأليمة أن الحياة التى استهان بها هؤلاء الناس وظلموها . . . قد ظلمت هى الأخرى كثيرين غيرهم . ضاقت بهم ، وضاقوا بها ، بعد أن تعثرت خطواتهم ، وتقلبوا بين البؤس والشقاء ، وهم لا يجدون قوت يومهم . وعندما تجرعوا كؤوس المرارة حتى الثمالة ، تركوا بموتهم للبشرية كنوزاً هائلة من أعمال مجيدة ، ظلت محجوبة طوال حياتهم ، حتى جاء الموت فأنصفهم من

الحياة التى استهانت بهم وظلمتهم ، وبوأهم مكاناً رفيعاً فى دنيا الخلود . .

وهنا استدركت قائلا :

— ولكن إلى جانب هؤلاء وأولئك ، هناك من كتب لهم العلو فى حياتهم وفى مماتهم . .

— صدقت . . . ولعل أقرب هؤلاء إلى ذهنى فى هذه اللحظة صديقنا المرحوم « أدهم فريد » . . . كنت أراقبه بين الذين جمعت ظروف الحياة بينى وبينهم فى مراتع الطفولة ، وملاعب الشباب . . ومتاعب الحياة ومسئوليتها ، فأعجب لمعدنه الأصيل ، وأحمد الله على نعمة صداقته . . كانت طبـــاع هؤلاء الرفاق ومعادنهم تنمو معهم ، وتنصقل كلما تقدمت الأيام والسنون ، وتشابكت مصالحهم مع غيرهم من الناس . . . وكنت ألاحظ « أدهم فريد » من بينهم فى نبله وشهامته وخلقه الكريم ، وأجد ذلك كله ينمو معه كلما تمت شخصيته ، ويلازمه طول حياته ، على مدى يزداد اتساعاً كلما امتد أمامه الطريق إلى أرفع مناصب الدولة ، التى لم تزده إلا تواضعاً ونبلا ، وقدرة على فعل الخير الذى عرف به طول حياته ، كما عرف عنه بعد مماته .

واستطرد بعد صمت :

— وإذا كان الموت هو قمة الحياة ، فقد تجاوز صاحبى ، فى نبله ، هذه القمة . . . حتى إننى وأنا فى موكب جنازته ، والحزن يكاد يعصف بقلبى وقلوب المشيعين من حولى ، كان يخيل إلىّ أن

النعش فى مسيرته يشق أمام صاحبه طريقاً معبداً إلى حسن الأحدوثة وعاطر الذكر ، ويشفع له كأكرم ما تكون الشفاعة ، جزاء وفاقاً لما قام به هذا الرجل النبيل من خير فى حياته . . . وما لبثت الأيام أن أكدت لى أن ما تصورته فى موكب الجنازة شعوراً ربما كنت مدفوعاً إليه بعاطفة الحب والصداقة ، إنما هو حقيقة أيدها مرور الزمن ، وتتابع الحوادث . . ولعل أقربها إلى ذاكرتى هى حادثة الرجل الذى كان معنا هنا منذ لحظة !

فقلت مستوضحاً :

— إنه يبدو مشفقاً على نفسه من البنك . . كما لو كان يتوجس منه شراً . . !

— هو فعلا على ما وصفت من خوفه وإشفاقه !

— من البنك ؟ !

— ربما ، وإن كنت أعتقد أنه قلق لأنه وجد نفسه فجأة يتحمل من المسئولية فوق ما يطيق !

وصمت فترة قصيرة ثم قال :

— كان له شقيق وحيد مات فجأة . . عن ولد وبنت . . وليس للولدين من عائل سواه . . وهو فيما ترى ، وكما يبدو ، رقيق الحال . . لم يكن قبل ذلك مسئولا إلا عن نفسه . . تلك كانت حدود مسئوليته إلى حين وفاة شقيقه تاركاً له الولدين اليتيمين . .

وهو لا يدرى كيف يعولهما ويعول نفسه معهما . .

– كان الله فى عونه !

– وقد ترك الوالد المتوفى للطفلين ثروة مودعة فى البنك !

– الله أكبر ! ! لقد خف حمل الرجل إذن ! !

– ليس كما تتصور . . هذه الثروة . . إذا جاز أن نسميها ثروة . . . هى فى الواقع غريبة فى مصدرها . . كما هى غريبة فى وضعها . . .

فاستفهمت قائلا :

– هذا لغز يحتاج إلى إيضاح . . !

ورد صاحبى مبتسماً :

– هى ليست من مال الأب . . ! ! ولكن من مال صديقنا المرحوم « أدهم فريد »

– وهل ورثة صديقنا ينازعون فيها ؟ !

– أبداً إنهم لا يفكرون فى ذلك . . وما كان لخطر على بالهم شىء منه .

– العقبة إذن من البنك ؟

– نعم العقبة من البنك . . وهى للأسف عقبة قانونية لا غبار عليها . .

– إذن هو مبلغ كبير . . يدعو أمر صرفه إلى احتياط كبير من

جانب البنك ؟ !

– أبداً . . المبلغ زهيد جداً . . تافه . . اثنا عشر جنيهاً . .

– وبسبب هذا المبلغ يستبد القلق بالعم إلى هذه الدرجة ؟

– لو كنت فى فقر الرجل لوجدت فى المبلغ ثروة .

– ولكن لماذا يضع البنك العراقيل فى صرف المبلغ . . لا بد من سبب . .

– سؤالك يعود بنا إل أصل المبلغ . .

ثم استأنف المحامى يقول :

– كان الوالد المتوفى عاملا شاباً يكدح فى الحياة لإعالة نفسه ووالديه بعد وفاة أمهما . . . وكان مصاباً بداء الرئة . . وأغلب الظن أن الداء انتقل منه إلى ابنته . . فلجأ إلى صديقنا المرحوم « أدهم فريد » ، وكان العامل يؤدى له بعض الخدمات المنزلية . لم تكن العلاقة بينهما تتعدى هذا الحد . . . ولكنك تعرف مروءة « أدهم » وتعرف مبلغ حبه للخير . . لقد تبنى الأسرة بكافة مشاكلها . . . بادر بالسعى حتى أدخل البنت مستشفى الأمراض الصدرية . . وزيادة فى الحرص . . رأى وقاية الولد بإبعاده عن أبيه ، فألحقه بمدرسة نحسين الصحة . . ثم بلغه أن البنك يعرض مناقصة لعملية تركيب أدوات إضاءة . فشجع الأب ، وكان هذا اختصاصه ، على أن يتقدم للمناقصة ، وبادر بأن دفع للبنك ، باسم العامل ، التأمين المطلوب

وقدره اثنا عشر جنيهاً . . . ثم لم يلبث القدر أن تدخل . . . مات فاعل الخير . . ولحق به العامل ، الذى تلقى من البنك ، بعد وفاته ، خطاباً يدعوه إلى الحضور لاستلام قيمة التأمين بعد أن انتهت العملية . . !

ولما كان من المستحيل على الرجل أن يقوم من قبره ليلبى طلب البنك ، فقد تعيّن على شقيقه أن ينوب عنه فى استلام المبلغ الذى أصبح من حق الورثة . . . وكم كانت دهشته عندما فوجئ بأن عليه : استخراج إعلام شرعى بالوراثة ، وقرار وصاية على القاصرين ، وشهادة إفراج من الضرائب ، وأن تكاليف استخراج هذه المستندات تزيد على المبلغ المطلوب استرداده من البنك . . ! ! والطفلان اليتيمان فى أشد الحاجة إليه . . وعندما أسقط فى يده تذكر أنى صديق المرحوم « أدهم » . وأنه قد يجد عندى من المروءة ما كان يجد عنده . . وبحكم عملى وجدت أن البنك سوف يتمسك بحرفية النصوص القانونية دون روحها ، ولم أجد ، كمحاولة أخيرة ، غير الالتجاء إلى العاطفة الإنسانية عساها تنجح فيما قد يفشل القانون فيه . فكتبت للبنك هذا الخطاب عن لسان شقيق المتوفى أعرض حال اليتيمين ، وذكرت فيه :

« فإذا رأى البنك أن يصرف هذا المبلغ للبنت والولد ليشتريا به ملابس تقيهما برد الشتاء ، ولا سيما أن البنت مريضة بداء الربة ، دون اشتراط تقديم المستندات السالفة الذكر ، كان مشكوراً ، وإذا رغب البنك فى الحصول على ضمانة شخصية لرد المبلغ فى حالة ظهور وارث

آخر ، أو ضرائب مستحقة على المورّث ، فإن فاعلى الخير كثيرون ، وأستطيع أن ألجأ إلى واحد منهم ، ليقدم الضمان اللازم » .

« أما إذا تمسك البنك بضرورة تقديم المستندات ، فالله يعوّض الولدين عن المبلغ خيراً » .

وهنا سألته :

— وما رأيك . . هل سيستولى البنك على المبلغ ؟ !

— هذا ما أخشاه . . أغلب الظن أنه سيضيفه إلى أرصدته ! !

— ولكنه مبلغ زهيد . . لا يستحق .

— لا فرق فى دنيا المال بين المبلغ الصغير والمبلغ الكبير . . هى دنيا يستوى فيها الجنيه والمليم ! !

— ولكن هذا حرام .

— قد يكون حراماً عند من يملك قلباً . . فهل سمعت يوماً أن للبنوك قلوباً ؟ !

— أين القانون إذن ؟

— وهل خالف البنك القانون ؟ ! إنه لم ولن يمانع فى صرف المبلغ . . ولكنه سيشترط تنفيذ الإجراءات . . الإجراءات التى ينص عليها القانون . .

— ولكن اليتيمين وعمهما لا يملكون الوسيلة لذلك !

— هذا أمر لا شأن للبنك به .

www.liilas.com
منتديات ليلاس

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٩
تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٤٥٣/١٩٦٩

وضحك فى أسف وهو يقول :

— على العكس قد يرى البنك فيه فرصة مواتية لتضخيم أرصدته . . فرصة هيأها له القانون . . ورحم الله أخانا « أدهم » وعوّض اليتيمين عن ماله خيراً .

* * *

ومضت أيام ، ثم جاءت المفاجأة الكبرى فى هذا الخطاب الذى تلقاه العم من البنك :

« السيد / . . .

بعد التحية ، يشرفنا أن نخطركم بأننا سنقوم بصرف مبلغ التأمين المودع وقدره اثنا عشر جنيها ، مع الاستجابة لرغبتكم فى الاكتفاء بالضمانة الشخصية ، وتقديم شهادة إدارية موقع عليها من اثنين من موظفى الحكومة بانحصار التركة فى ابن المتوفى وابنته .

رجاء الحضور ومعكم المستندات المطلوبة .

وتفضلوا . . . . »

نماذج من الناس

مجموعة من القصص القصيرة استمدت حوادثها من واقع الحياة . واستطاعت على الرغم من اختلاف موضوعاتها ، وتعدد ما ترمز إليه معنىً ومغزًى ، أن تلقى الضوء على الكثير من ملامح المجتمع الذى عشنا ونعيش فيه ، وأن تبرز ، إلى حد كبير ، الصورة العامة لتلك الملامح بمحاسنها وعيوبها على السواء .

ومع احتفاظ كل قصة من هذه القصص بشخصيتها واستقلالها عن أخواتها ، فإنها فى جملتها تبدو كمجموعة من الألوان المتمايزة تهدف فى ترابط وتكامل إلى إبداع صورة واحدة بذاتها . . . والصورة التى ترسمها هذه القصص تكشف عن بعض الجوانب الإنسانية من حياتنا ، وألوانها هى النماذج التى اختارها الكاتب من بين الناس لتكون أداته لإبراز معالم هذه الصورة فى بساطة وصدق يصلان إلى قلب القارئ وعقله فى حفاوة وحسن إدراك .

www.liilas.com

دار المعارف بمصر

٣٠ م

florist